

الشِّرك

عناصر الموضوع

٢٥٤	مفهوم الشرك
٢٥٥	الشرك في الاستعمال القرآني
٢٥٦	الألفاظ ذات الصلة
٢٥٨	تنزيه الله تعالى عن الشركاء
٢٦٦	أنواع الشرك في القرآن
٢٧٨	مراتب الشرك
٢٨١	أسباب الشرك
٢٨٩	الرسول ومحاربة الشرك
٢٩٢	أساليب القرآن في محاجة المشركين
٢٩٥	أحكام تتعلق بالمشركين في القرآن
٣٠٢	عداوة المشركين للمسلمين
٣٠٧	الشرك في المثل القرآني
٣١٠	الآثار المترتبة على الشرك

مفهوم الشرك

أولاً: المعنى اللغوي:

شرك: قال ابن فارس: «الشين والراء والكاف أصلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفرد، والآخر يدل على امتداد واستقامة، فالأول الشراكة، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلانا في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلانا، إذا جعلته شريكاً لك، قال الله جل ثناؤه في قصة موسى: ﴿وَأَشْرِكُوا فِي أُمْرِي﴾ (طه: ٣٢)»،^(١) وقد جاء بمعنى المخالطة^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرفه عبد المحسن قاسم بقوله هو: «دعوة غير الله معه»^(٣)، أو هو: «مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله»^(٤)، وقال أبو بكر الجزائري: هو ما ينافي التوحيد^(٥)، وعرفه أ.د. سعد عاشور بأنه «اتخاذ الند مع الله تعالى سواء أكان هذا في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، أي: جعل شريك مع الله في التوحيد»^(٦)، ويغلب هذه التعريفات الصبغة العقدية الصرفة، ولكن من خلال النظر في سياق القرآني الذي جاءت فيها ألفاظ الشرك يمكن القول بأن الشرك هو: «أن يكون مع الله نداً أو مثيلاً فيما يخص الله من معتقد، أو عبادة، أو طاعة». العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

المعنى الاصطلاحي يتجه إلى المعنى الأول من المعاني اللغوية؛ إلا أنه يخص بجعل الشريك مع الله.

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٤٨.

(٣) تيسير الوصول شرح ثلاثة الأصول، ص ٤٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٥) انظر: عقيدة المؤمن، ص ١٠٧.

(٦) التبيان شرح أركان الايمان، ص ١٤٨.

الشرك في الاستعمال القرآني

وردت مادة (شرك) في القرآن الكريم (١٦٩) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٣) مرة^(١).

والصيغة التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٨	﴿أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]
الفعل المضارع	٥٢	﴿وَلَوْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]
المصدر	٥	﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]
الصفة المشبهة	٣	﴿لَا شَرِيكَ لَهٗٓ وَيَذِكُّكَ الْأُنْعَامُ﴾ [الأُنْعَام: ١٦٣]
اسم	٣٦	﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأُنْعَام: ١٠٠]
اسم فاعل	٤٩	﴿إِنَّمَا الشِّرْكُوتُ بَحْسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]

وجاء الشرك في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه^(٢):

الأول: الإشراف بالله، وهو أن يعدل به غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. أي: لا تعدلوا به شيئاً سواه.

الثاني: الشرك في الطاعة من غير عبادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لِلَّهِ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَتْهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]. أي: جعلوا إبليس شريكاً مع الله سبحانه.

الثالث: الرياء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. يعني: ولا يرائي.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الشين، ص ٦٦١-٦٦٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص ٢٦-٢٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٢٨٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الايمان، لأنه تغطية للحق^(١).

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»^(٢).

الصلة بين الكفر والشرك:

«أن الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب فمنها الشرك بالله»^(٣)، فالشرك يتعلق بالله من ناحية التوحيد والعمل والطاعة، بينما الكفر يتعلق بالجحود والإنكار في نواحي الإيمان والنعم الإلهية، فبينهما عموم وخصوص، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشرك.

٢ الإلحاد:

الإلحاد لغة:

قال ابن فارس: اللام والحاء والdal أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل، إذا مال عن طريقة الحق والإيمان^(٤).

الإلحاد اصطلاحًا:

هو: «الميل، والجور، والانحراف عن الإسلام، أو الإيمان»^(٥).

الصلة بين الإلحاد والشرك:

ولما كان الشرك أن يجعل لله ندًا، والإلحاد حيودًا عن الحق وانحرافًا عن المعتقد كان الشرك وجهًا من وجوه الإلحاد، فالإلحاد أعم وأشمل من الشرك.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٩١/٥.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٧٩١/٢.

(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٢٨.

(٤) انظر: مقاييس اللغة ٢٣٦/٥.

(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٧٢/٩.

التوحيد لغة:

من وحد يوحد توحيدًا، ووحد الشيء، أي : جعله واحدًا ونفى عنه التعدد^(١)، وقال ابن فارس: الواو والحاء والذال: أصل واحد يدل على الانفراد^(٢)، فالتوحيد نسبة الانفراد للشيء.

التوحيد اصطلاحًا:

عرفة الجرجاني بأنه « ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة^(٣)، وعرفة أبو بكر الجزائري بأنه: «نفي الكفاء والمثل عن ذات الله وصفاته وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته وعبادته عز وجل^(٤)».

الصلة بين الشرك والتوحيد:

في ضوء ما سبق من تعريف الشرك والتوحيد في اللغة والاصطلاح يتبين أن التوحيد والشرك في مسألة ما نقيضان لا يجتمعان، فإن أشرك في المسألة فهو غير موحد بها، وإن وحد نفى عن نفسه الشرك بها.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص ١٠١٦.

(٢) مقاييس اللغة ٩١/٦.

(٣) التعريفات، ص ٦٩.

(٤) عبادة المؤمن، ص ٥٣.

تنزيه الله تعالى عن الشركاء

إن تنزيه الله عن الشرك واجب شرعي، بل وضرورة شرعية؛ فقد نزه الله نفسه عن الشرك، ونزّهه جميع الرسل، كما نزّهته الملائكة، وجميع المؤمنين من الثقلين، وقد تبرأ الله ممن أشرك به شيئاً، وفيما يلي تفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: تنزيه الله تعالى نفسه عن الشركاء:

لقد نزه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نفسه عن الشركاء، وبين أنه الواحد الأحد، الذي يستحق من عباده الإيمان به، فهو المعبود الحق، الذي يجب أن نتوجه إليه بالعبادة، فلا يستحقها أحد غيره، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

١. تنزيه الله تعالى نفسه عن الولد.

زعمت اليهود والنصارى أن الله سبحانه اتخذ لنفسه ولداً.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَسَلِّمْهُمْ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكَوْا﴾ [التوبة: ٣٠].

فرد الله عليهم في كتابه العزيز، مقيماً الحجة عليهم، وداحضاً زعمهم الباطل

في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَدِينٌ﴾ [البقرة: ١١٦].

قال الزمخشري: «فالله سبحانه نزه نفسه عن ذلك، فكل ما في السموات والأرض هو خالقه ومالكه، ومن جملة الملائكة وعزير والمسيح كل له قانتون منقادون، لا يمتنع شيء منه تكوينه وتقديره ومشيتته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم»^(١).

فالله سبحانه أحد لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، فمن كان له زوجة فهو ليس بإله ولا يستحق العبادة، كذلك من كان له ولد، لذلك دعا الله سبحانه أهل الكتاب إلى الانتهاء عن قولهم: إن الله ثالث ثلاثة، وتوعدهم إن لم ينتهوا عن ذلك بالعقاب الشديد.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي

(١) الكشاف ١/ ١٨٠.

لوجهين: الأول: أن كل ما عداه مخلوقه، فلا يكافئه. والثاني: أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات: ولا كذلك غيره بالإجماع^(٣).

وزعم مشركو العرب أن الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧].

فرد أباطيلهم بقوله: ﴿أَفَأَصْفَقُوا رَبِّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال ابن عطية: «هذا تعديد لقبح قول الكفار: الملائكة بنات الله، ورد عليهم من وجهين، أحدهما: نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك، والآخر: أنهم نسبوا من النسل الأخس المكروه عندهم^(٤)».

٢. تنزيه الله نفسه عن الأنداد.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا يَعْجُدُوا لِلَّهِ وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وصف الله اليهود والنصارى بضرب من الشرك بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَجْنَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

فهذه الآية تبين حقيقة المسيح ابن مريم، أنه عبد الله رسوله، وأنه ابن مريم وليس ابناً لله^(١)، فالمسيح من جملة قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالجميع ملك لله، هو خالقهم ومدبر أمورهم، فكيف يكون ابناً لله؟!^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

قال البيضاوي: «وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه:

الأول: أنه من مبدعاته السموات والأرضون، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها، أو أن ولد الشيء نظيره، ولا نظير له فلا ولد.

الثاني: أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله سبحانه وتعالى منزّه عن المجانسة.

الثالث: أن الولد كفؤ الوالد، ولا كفؤ له

(٣) أنوار التنزيل ٢/ ١٧٦.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٤٠١.

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢٤.

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴿١٠﴾ والأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم^(١).

وقد نزه الله تعالى نفسه عن الشركاء في الأمر والنهي، فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ونفى سبحانه وجود الشريك بقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ففي الآية دليل عقلي منطقي ينفي وجود الشريك أو المثل لله، حيث نزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك، فلو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فلا ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، وفي غاية الإتقان والتكامل، وهذا دليل على أن الإله واحد لا شريك له في ملكه، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والإله لا يكون

عاجزا، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالاً، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الإله^(٢).

ويصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَنفَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢-٤٣].

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣].

٣. تنزيه الله نفسه عن الشفعاء.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فالآية توضح أن المشركين اتخذوا مع الله شركاء، وظنوا أنهم سيشفعون لهم في الآخرة، فبين سبحانه أن الشفاعة لا تكون إلا لمن يأذن له تعالى بالشفاعة، فهي ليست حقا لأحد، ولكنها عطاء ومنحة من الله تعالى، لذلك يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩١.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٣٠.

الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأكثر المشركين مصدقون للجن فيما يلقونه إليهم من الوسوس، ومنها الأمر بعبادة غير الله تعالى من الأصنام وغيرها^(٣).

ثالثاً: تنزيه الرسل الله سبحانه وتعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۚ ﴿١٣١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ ﴿١٣٢﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

ففي الآية الكريمة بيان لقبح ادعاءات النصراني، وبيان لركاكة ما ذهبوا إليه من وصف الله تعالى بما لا يليق به سبحانه وهو اتخاذ الزوجة والولد، وجعلوا من ذلك ديناً، فهذا سر سؤاله تعالى لعيسى عليه السلام على رؤوس الأشهاد، ليقر عليه السلام بالعبودية لله تعالى، وأنه ما أمرهم إلا ليعبدوا الله تعالى، إلهاً واحداً لا شريك له^(٤).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨١، التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٢٠٢.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٩.

بِإِذْنِهِ ﴿[البقرة: ٢٥٥]﴾^(١)، «الشفاعة علاقة بين المشفوع والشفيع، فإذا كانت حقيقية فلا بد أن يعلم المشفوع بها»^(٢).

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ۚ ﴿١٩﴾﴾ [طه: ١٠٩].
وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۚ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والحقيقة التي لا تقبل الشك، أن الله واحد أحد منزّه عن الشركاء والوسطاء، وهذا ما دلت عليه النصوص، وقد نزه الله نفسه عن الشركاء في كتابه العزيز في أكثر من آية، وهذا بيان لها.

ثانياً: تنزيه الملائكة الله تعالى عن الشركاء:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كُرَّهْنَا أَنْتُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فهذه الآية تبين أن الملائكة الكرام يتبرؤون يوم القيامة من المشركين، ومن عبادتهم إياهم، وينزهون الله تعالى أن يكون له شريك في العبادة، فلا موالاة بينهم وبين المشركين، بل إنهم كانوا يعبدون الشياطين

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ١٠٩٨.

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٥٣٨.

ويقول محمد رشيد رضا: «إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزّه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته»^(١). وقد ورد أيضًا ما يبين أن المرسلين قد نزهوا الله عن أن يشاركه أحد في التصرف في ملكه أو التحكم عليه.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَسَىٰ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۖ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فهذه الآية تشير إلى أن الرسول بشر، لا يأتي قومه إلا بالمعجزات التي يظهرها الله على يديه، وليس لأحد أن يحكم على الله تعالى، أو يتخير عليه^(٢).

قال الماتريدي: «وقوله عز وجل: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أمره أن ينزهه ربه عن أن يكون لأحد الاحتكام عليه والحكم، والذي سأله احتكام منهم على الله»^(٣).

وقال ابن عاشور في التحرير: «ولما كان اقتراحهم اقتراح ملاجة وعناد أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ التي تستعمل في التعجب، كما تقدم في طالع هذه السورة، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرا إضافيا، أي: لست ربا متصرفا أخلق ما يطلب مني»^(٤).

فالدعوة إلى الله وحده وتنزيهه عن الشرك هي أعظم ما بعث من أجله المرسلون.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

ففي الآية بيان للسبيل الذي يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي: الدعوة إلى الله على بصيرة، وتنزيه الله تعالى من الشركاء، والبراءة من المشركين^(٥).

قال ابن باديس: «وكان من سبيل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يدعو الخلق إلى الله، وينزهه عن كل ما نسب إليه المبطلون وتخليه المتخيلون، وهو معنى قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، فهو يدعوهم إلى الله الذي قد عرفوا وجوده بفطرتهم، وعرفوا أنه

(١) المنار ٧/ ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٧٧.

(٣) تأويلات أهل السنة ٧/ ١١٢.

(٤) التحرير والتنوير ١٥/ ٢١٠، ٢١١.

(٥) انظر: تفسير ابن باديس، ص ٣١٣.

متعددة من الشرك التي وقع بها المشركون من أهل الكتاب، ونزه المؤمنون ربهم عنها، وبيانها فما يأتي:

١. ألا نعبد إلا الله.

٢. أن لا نشرك به شيئاً.

٣. أن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

وذكر هذه الثلاثة؛ لأن النصارى جمعوا بينها، فعبدوا غير الله، وهو المسيح ابن مريم، وأشركوا به غيره، وذلك لأنهم يقولون: إنه ثالث ثلاثة، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، حيث كانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم ومعصية الله، وكانوا يسجدون لأحبارهم، ولا معنى للربوبية إلا ذلك^(٢).

فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعو أهل الكتاب إلى ما هو عليه حال المؤمنين من توحيد الله عز وجل ونبذ الشركاء في هذه المسائل، فإن المؤمنين عبوديتهم خالصة لله تعالى لا يرجون من طاعتهم إلا ابتغاء وجهه الكريم، وينزهونه عن الشريك، ولا يطيعون في معصيته أحداً، ولا يسجدون إلا لله.

وقال تبارك وتعالى على لسان عباده المؤمنين مبيناً إخلاص ولائهم لله عز وجل: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ

هو خالق الكون وخالقهم، لا يسميه إلا بما سمى به نفسه، ولا يصفه إلا بما وصف به نفسه، ويعرفهم بأثار قدرته، ومواقع رحمته، ومظاهر حكمته، وآيات ربوبيته وألوهيته، ووحدانيته في جلاله وسلطانه، وينزهه عن المشابهة والمماثلة لشيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وهذا التنزيه - وإن كان داخلياً في الدعوة إلى الله - فإنه خصص بالذكر، لعظم شأنه؛ فإنه ما عرف الله من شبهه بخلقه، أو نسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو أشرك به سواه، وإن ضلال أكثر الخلق جاءهم من هذه الناحية، فمن أعظم وجوه الدعوة وألزمها، تنزيه الله تعالى عن الشبيه والشريك، وكل ما لا يليق^(١).

رابعاً: تنزيه المؤمنين الله عن الشركاء:

وقد نزه المؤمنون ربهم عز وجل عن الشركاء والأنداد، في معتقدتهم وعبادتهم وولائهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهذه الآية الكريمة تناولت جوانب

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٢٥٢.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣١٧.

مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءٍ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ
حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾
[الفرقان: ١٨].

قيل : إن السؤال موجه في الآية لعزير
والملائكة وعيسى ابن مريم من العقلاء ^(١) .
ويدخل في هذا السياق كل من عبد من
دون الله من المؤمنين والصالحين على
على مدى الزمان، فهم يبرؤون إلى الله ممن
اتخذهم أرباباً من دون الله، ويقررون بأن
والولاء لا يكون إلا لله ولاء طاعة وعبودية
وانقياد.

وقال تعالى في شأن المؤمنين من الجن:
﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا
﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا
﴿٣﴾﴾ [الجن: ٢-٣].

ففي الآية دلالة على أعظم ما في دعوة
محمد صلى الله عليه وسلم وهو: توحيد
الله تعالى، ونبذ الشرك والمشركين، وقد
آمنت الجن أن القرآن كلام الله، بسماعه
مرة واحدة، في حين لم ينتفع كفار قريش،
بسماعه مرات، مع كون الرسول صلى الله
عليه وسلم منهم يتلوه عليهم بلسانهم، فالآية
بينت أن الجن نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله
تعالى، ونزهوه تعالى عن اتخاذ الصاحبة
والولد، وبذلك أثبتوا وحدانية الله وامتناع
وجود شريك له ثم أثبتوا له القوة والعظمة،

ونزهوه عن الحاجة والضعف باتخاذ
الصاحبة والولد، شأن العباد الذين يتعاونون
على أمور الحياة بالزوجة للسكن والألفة،
وبالولد للمؤازرة والتكاثر والأنس ^(٢) .

وقد جاء في الكتاب العزيز كثير من
الآيات التي ينزه المؤمنون بها ربهم عن
الشركاء والأنداد، وهذا بيانها:

قال تعالى: ﴿لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ لَقَمْنُ لِابْنَيْهِ وَهُوَ
يَعْظُمُ يَبْنِي لَا تُشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ
عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقال تعالى: ﴿تَدْعُونِي لِكُفْرٍ بِاللَّهِ
وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ
إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقِيرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤٢].

خامساً: براءة الله ورسله من
المشركين:

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَأَنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢﴾﴾ [التوبة: ٢].

[٣].

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٩ / ١٦١.

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨ / ٩٠.

إلى التأسى بإبراهيم ومن آمن معه ، وجعلهم قدوة لهم في سيرتهم العملية التي كانت من هداية الله تعالى لهم، وهي البراءة من قومهم معبوداتهم ما داموا عابدين لها، ولما كان وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار له وهو المشرك ليس من هذا الهدى، بل كان مسألة شاذة لها سبب خاص استثنائها تعالى من التأسى به ، فقال: ﴿لَا قَوْلَ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ (١).

روى البخاري في الصحيح بسنده قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أي عم، قل: لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣) (٢).

ففي الحديث بيان لنهي الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من الاستغفار

لما كان المشركون بالله المصرون على شركهم من أعدى أعداء الله ورسوله، تبرأ سبحانه منهم وأمر رسوله أيضا بالتبرؤ منهم، ومن عهودهم ومواثيقهم، وإن أكدوها وغلظوها، فهذه براءة وإسقاط ذمة، ورفع أمان من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم لما كان بين المؤمنين والمشركين من عهود ومواثيق، فلا هدنة بعد اليوم، وصار الحكم إما السيف، أو الإسلام فإن تابوا ورجعوا عن الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد فهو خيرٌ لهم، وإن أعرضوا عن الإسلام والإيمان وأصروا على الشرك والطغيان، فليسوا بمعجزى الله ولا غاليين جنده.

وقد أثنى الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين لتبرئهم من المشركين من قومهم، وجعلهم قدوة حسنة ومثلاً يحتذى به في توحيدهم لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْمَدْوَةُ وَالْبَعْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ نَبَا عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

وقد أرشد الله تبارك وتعالى المؤمنين

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ما كان للنبي والذين آمنوا)، رقم ٩٦٧٥، ٩٦/٦.

أنواع الشرك في القرآن

أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بعبادته وتنزيهه عن كل الشركاء.

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

كما أمرهم سبحانه وتعالى أن يجعلوا له في نفوسهم من التعظيم والتنزيه ما لا يجعلوا لغيره، فأبى أكثر الناس إلا كفورًا، فأشرك من أشرك واحد من حاد، ونتناول في هذا المبحث بعضًا من المطالب التي بين القرآن الكريم فيها وقوع بعض الناس في أنواع من الشرك، وبيانها فيما يأتي:

أولاً: الشرك في الاعتقاد:

١. شرك المحبة.

راعى القرآن الكريم الفطرة البشرية، واعترف بمكوناتها ونزعاتها ورغباتها، والحب أمر فطري مغروس في النفس البشرية ومجبولة عليه، كحب الولد والمال والنساء.

قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

للمشركين مهما تكن قرباتهم.

أما استغفار إبراهيم لأبيه فكما يبين السياق القرآني في قوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

حيث دعا إبراهيم أباه للإيمان وترك الأوثان، فوعده أبوه بأن يسلم، فقال إبراهيم: لأستغفرن لك إن أслمت، باعتبار أن هاء الضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾ تعود على إبراهيم، وقيل: إن الهاء تعود إلى الأب على اعتبار أن إبراهيم وعد أباه أن يدعو له ربه ويستغفر له رجاء إسلامه، ويدل على المعنى الثاني قراءة الحسن (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه)، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله بموته على الكفر تبرأ منه وكف عن الدعاء له والاستغفار^(١).

وقد جاء في السياق القرآني العديد من الآيات الكريمة التي تبين براءة الله ورسوله ورسله أجمعين من المشركين، فبراءة الله ورسوله من المشركين تستوجب خذلانهم في الدنيا وهزيمتهم ومهانتهم، وعذابهم في الآخرة والانتقام منهم.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٩٥.

نرى السياق القرآني يعجب ممن يتخذون من أوثانهم وسادتهم التي يشركونها مع الله في الطاعة نظراء لله، فيجعلون لهذه الآلهة في قلوبهم نصيباً من المحبة، كحب المؤمنين لله، ولكن حقيقة الأمر أن حب المؤمنين لله أشد وأصدق^(٣).

وقد توعد الله من ساوى بين الخالق والمخلوق في المحبة بالعذاب الأليم يوم القيامة، كما قضى بفسق من قدم محبة شيء من زينة الدنيا ومتاعها من مال وأهل وعشيرة وتجارة على حب الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

والذي نخلص إليه: أن الذين يعدلون أو يساؤون في محبتهم لله تبارك وتعالى أي مخلوق، فقد أشركوه مع الله عز وجل، وأعطوه ما لا يستحقه من المحبة والإجلال^(٤).

مِنَ الْإِسْكَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْإِنْفُسِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتْنَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴿١٤﴾ [آل عمران: ١٤].

لكنه مع ذلك بين أن هناك من المحبة ما هو أعظم وأفضل، وهي محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهي ثابتة في الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]^(١).

وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن وحدانية الله تعالى، وتفرد به بخلق السموات والأرض، وتسيير كل ما فيها في نظام واحد، يدل على قدرته ووحدانيته^(٢).

فمن كان هذا شأنه فهو الذي يستحق من عباده أن ينزهوه عن كل الشركاء والأنداد، في كل جانب من جوانب حياتهم، فلا يقدموا على محبته محبة، فهو محبوب لذاته، ومحبوب لجميل عطائه وكريم إنعامه، لذا

(١) وقد ورد في السياق القرآني ثلاث آيات أخرى: آل عمران : ٣١، والمائدة: ٥٤، والتوبة، ٢٤.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٣٤.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٩٠.

(٤) انظر: مختصر تسهيل العقيدة الإسلامية، الجبرين، ص ٨٣.

٢. الخوف.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفرع، يقال: خفت الشيء خوفاً وخيفة»^(١).

وقال الأصفهاني: «حقيقة خوف الله امتثال أمره»^(٢).

والخوف أمر فطري جبلت عليه النفس البشرية كما الحب، وأقر القرآني الكريم وجوده.

قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ۖ﴾ [النمل: ١٠].

فالخوف عند توافر دواعيه، من فرع وحدوث خوارق وخلافه، مباح.

والخوف إذا اقترن معه التعظيم والخضوع والمحبة لغير الله، أو اقترن معه الاعتقاد بالنفع أو الضرر من غير الله، أصبح خوفاً شركياً مذموماً^(٣).

وذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْزَّمُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقد بين علماء التفسير أن المقصود من

خشية الله في الآية هو عبادته وتعظيمه دون سواه^(٤).

وقد ذم الله وعاب هذا الخوف إذا صرف لغيره، وأمر عباده المؤمنين بخشيته وقصر هذا الخوف لذاته سبحانه وتعالى والخضوع لسلطانه، وبين ذلك في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَخَافُونِ﴾ [النحل: ٥١].

وأثنى الله على عباده الذين أظهروا خوفهم من الله، وتحملوا في سبيل ذلك مشاق وتبعات التكليف.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِإِذْنِ إِلَٰهِكَ لَا أَفْئُتُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

٣. التوكل على غير الله.

أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعبادته والتوكل عليه في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

أي: «قم بعبادته -وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه- وتوكل على الله في»
(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ١٦٩/٣.

ذلك»^(١).

فجعل التوكل على الله وحده هو ما يعين على صحة القيام بالتكاليف.

كما أمر عباده المؤمنين بالتوكل عليه وجعله من تمام الإيمان، فقال: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

أي: «إن الألوهية من موجبات التوكل عليه تعالى، واللام في المؤمنين للجنس، فيدخل فيه الطائفتان دخولا أوليًا، وفيه إشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته»^(٢).

ونهى عز وجل عباده المؤمنين عن اتخاذ غيره وليًا، فقال: ﴿وَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيلًا﴾ [الإسراء: ٢].

أي: «أن لا تتخذوا شريكاً تلجؤون إليه، وقد عرف إطلاق الوكيل على الله في لغة بني إسرائيل»^(٣).

فجعل عز وجل الالتجاء إلى غيره سبحانه وتعالى اعتقاداً شركاً به، لذا نهى بني إسرائيل عن ذلك، والنهي هنا يشمل المؤمنين جميعاً، لأن ذلك من أصول العقيدة التي هي أصل التوحيد الذي شرعه الله للناس أجمعين.

وقد جعل التوكل من شروط صحة الإيمان بالله، فقال: ﴿قَالَ رَبُّلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

أي: «إن التوكل الحق لا يكون إلا من قلب مدعن مؤمن بالله مخلص له، مجيب لما يأمر وينهى، ولذلك قرن التوكل بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾»^(٤).

وقد جاء الحديث عن التوكل في القرآن في قرابة سبعين آية من آياته في أربع وعشرين سورة مكية ومدنية، وذلك لمكانة هذه العبادة القلبية العظيمة وأثرها في حياة الأمة المسلمة.

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة لتبين أن التوكل على الله عز وجل هو السمة المميزة للمؤمنين الصادقين، فالله لا يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أو عباده المؤمنين بأمر إلا ما فيه من الخير والرشاد ما يصلح حالهم وما فيه تمام إيمانهم، ففي الآية الأولى قرن عز وجل بين العبادة والتوكل.

والذي نخلص إليه: أن التوكل الذي هو عمل قلبي يجعل الإنسان يعتقد أن الضر والنفع معقود بهذا الوكيل، وذلك لا يكون إلا لله.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٣٩٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٩/٢.

(٣) التحرير والتنوير، بن عاشور ٢٥/١٥.

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/٢١١٦.

٤. الرياء.

جعل سبحانه وتعالى الرياء في العمل إشراكاً به في العبادة ومنافياً للتوحيد ، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: من كان يرجو ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا﴾، أي: موافقاً لشرع الله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل عند الله، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث أن رجلاً قال: (يا رسول الله، إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني. فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١)(٢).

فقد جاء الرد من العليم الحكيم قرآنًا يتلى إلى يوم القامة، شافياً لكل من يريد أن يعرف الرياء، فهو إشراك بالله عز وجل،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب الجهاد رقم ٢٥٢٧، ٢/ ١٢٢.

وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٥/ ٥.

فمن يرغب عن الشرك في العمل فعليه تجريد عمله من كل الأهواء، وإخلاص نيته عن كل الشركاء.

ولما كان الرياء نقيض الإخلاص ، وقد عاب الله الرياء، فقد أمر المؤمنين بإخلاص العبودية له، وجعل أهل العلم إخلاص النية لله الأساس لكل عمل.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝﴾ [البينة: ٥].

وفي معنى قوله عز وجل: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ أي: «موحدين لا يعبدون سواه حنفاء على دين إبراهيم» (٣).

وقد حذر الله عز وجل عباده المؤمنين من الرياء، وجعله من أعمال المنافقين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٤٢].

فهذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى، فما بالك بغيرها من سائر الأعمال، إنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ﴾ فهذه صفة ظواهرهم، ثم ذكر تعالى صفة

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤٧٦/ ٤.

والأولاد أو غير ذلك، نسبوا ذلك لسبب اتباعهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره، وهو جارٍ على المؤمن والكافر على السواء.

وقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهُ عَنْ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]. أن الأعراب كانوا إذا ما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فصحاء، وولدت نساؤهم الغلمان، وأنتجت بهائمهم، قالوا: ما أصابنا منذ دخلنا في هذا الدين إلا الخير، وإن أصابهم همٌ ووجعٌ، وحلت بهم الكروب، وسوس إليهم شيطانهم أنه ما أصابهم منذ دخولهم في دين محمد صلى الله عليه وسلم إلا الشر، فينقلبوا عن دينهم خاسرين^(٢).

ومما سبق يتضح أن القرآن الكريم ذم التطير، والمتطيرين، وجعل هذه الصفة ملازمةً لأعداء رسله وأتباعهم، تنفيراً منها، وإظهاراً لخطورتها على عقيدة المؤمن، فالؤمن الحق هو الذي يسلم أمره لربه ويحسن التوكل عليه، ويعلم أن كل ما أصابه من خيرٍ أو شرٍ جارٍ بقضاء الله وقدره.

كما يلاحظ توافق الكافرين في موقفهم

بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم^(١).

وهذا هو معنى الإشراك بالله تعالى في الطاعة والنية.

وقد قرن الله تبارك وتعالى بين النفاق وعدم الإيمان بالله فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا لِلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

٥. الطيرة.

التطير صفة أعداء الرسل في كل زمانٍ ومكانٍ، فهي لم تكن موجودة قبل الإسلام فحسب؛ بل استمرت معهم بعد الإسلام إذ تطيروا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وهذا يفهم من قوله تعالى: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

فكان إذا أصاب المنافقين الخصب، والنماء، وكثرة الأولاد، قالوا: هذا من عند الله، وإن أصابهم القحط، ونقص في الثمار

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٨.

(٢) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص ٣٠٧.

من الرسل عليهم السلام، والتقائهم على التطير منهم، وذلك نظرًا للكفر الجامع بينهم، الأمر الذي جعلهم شركاء في الذم.

قال السعدي في حق المتطيرين: «فلما تشابهت قلوبهم بالكفر تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل في هذا الذم الوخيم»^(١).

وتجدر الإشارة إلى أنه لا تعارض بين الآيات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا طَيَّرْتُم بِهَا﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا طَيَّرْتُم مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

بل كل منهما محقق للآخر ومتمم لمعناه، فقوله تعالى: ﴿طَيَّرْتُم مَعَكُمْ﴾، أي: أن الله هو المقدر لهذا الشيء وليس غيره سبحانه، فهي في بيان سبب حصول الشؤم لهم، فهو بسبب كفرهم ومعصيتهم^(٢)، فالله قدر السوء والشر لهم بأعمالهم جزاءً عليها^(٣).

ثم أخبر سبحانه وتعالى أن كل ما يجري على ذلك العبد من نعمة أو مصيبة من عنده تعالى^(٤)، فقال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، حكم التطير، وكونه من الشرك، فقال صلى الله عليه وسلم: (الطيرة من الشرك)^(٥).

وعلى هذا فإن قوله: (من الشرك)، دلالة على كونه من الشرك الأصغر، لأنه اعتمد على سبب لم يجعله الله تعالى سببًا، وإن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سببًا، فإنه مشرك شركًا أصغر^(٦).

قال الطاهر بن عاشور: «التطير من شعار أهل الشرك لأنه مبني على نسبة المسيبات لغير أسبابها، وذلك من مخترعات الذين وضعوا لهم ديانة الشرك وأوهامها»^(٧).

أما إذا اعتقد أنها مؤثرة بذاتها، فهذا عين الشرك الأكبر المخرج من الملة^(٨).

ثانيًا: الشرك في الأعمال:

١. الشرك في الطاعة.

تعد الطاعة من أعظم أنواع العبادات التي أمر الله بها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة، رقم ١٦١٤، ٤/١٦١.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٧٣٢/٢، رقم ٣٩٦٠.

(٦) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٩٣/٢.

(٧) التحرير والتنوير ٦٦/٩.

(٨) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٩٤/٢.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٨٨.

(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٧٩-١٠٠.

(٣) انظر: الحسنة والسيئة، ابن تيمية، ص ٣٩.

(٤) انظر: شفاء العليل، ابن القيم ٣٣/٢.

قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأبو العالية، وحكى الطبري أن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي؛ اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعتة يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ آيَاتًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله، وكيف ولم نعبدهم؟ فقال أليس تستحلون ما أحلوا وتحرمون ما حرموا، قلت: نعم. قال: (فذاك) (٢).

قال سليمان بن عبد الله: «فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عبده، إذ معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة» (٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَابْتَغُوا الْفُسْقُ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُؤْخَذَ إِلَهُ الْأَوَّلِينَ﴾ لِيُجَدِّدُكُمْ وَلِيُنَظِّرَكُمْ لَكُمْ لِمُشْرِكُونَ (٤) [الأنعام: ١٢١].

قال ابن كثير: «أي: حيث عدلتم، عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقد متم عليه غيره، فهذا هو الشرك» (٥).

وفرق أهل العلم بين شرك العبادة، وشرك الطاعة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَليحًا جَعَلَا

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٥/٣.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص ١١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٢٩٥.

فَرَدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣١﴾ [النساء: ٥٩].

أي: أطيعوا الله تعالى فيما أمركم به، ونهاكم عنه، وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو مبلغ عن ربه، وأطيعوا أولي الأمر من الأمراء والحكام، والعلماء، شرط أن يكونوا أمناء، لا يخالفون منهج الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (١).

وبين سبحانه وتعالى أن من أطاع أحدًا من خلقه، في تحليل ما حرم الله تعالى، أو تحريم ما أحل الله تعالى، فقد اتخذ من دون الله ربًا مشرعًا.

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ آيَاتًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ [التوبة: ٣١].

ففي الآية بيان للشرك في الطاعة، وذلك بطاعة الأعبار والرهبان، في تغيير شرع الله تعالى، وهذا من الشرك الأكبر، «فقد سماهم أرباباً وهم لا يعبدونهم، لكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم، وهو أمر لا يتلقى إلا من جهة الله عز وجل، ونحو هذا

(١) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الزحيلي ١/١٢٨.

لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١١٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١١١﴾

[الأعراف: ١٩٠-١٩١].

فقد جاء بسند صحيح عن قتادة أنه قال: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»، وهذا دليل على التفريق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، فالشرك في العبادة كفر أكبر مخرج من الملة، أما الشرك في الطاعة فله درجات يبدأ من المعصية والمحرم وينتهي بالشرك الأكبر^(١).

٢. السحر.

لقد حرم الله تعالى السحر.

قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا مِنَ السَّيِّئَاتِ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ السَّيِّئَاتِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

فهذا إخبار عن اليهود الذين أخذوا

بالسحر الذي تقولته الشياطين على عهد ملك سليمان، ونسبوه إلى سليمان عليه السلام بهتاناً وزوراً، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن سليمان لم يكن ساحراً كما زعموا، ولكن الشياطين هم السحرة، وهم الذين كفروا بتعليمهم للناس السحر، ثم بين سبحانه وتعالى شيئاً من مقاصد الذين يتعلمون السحر، وهو تفريقهم بين المرء وزوجه، ولكن الله أخبر أنه لا يتم تأثير السحر إلا بإذنه، وأن من اعتاض بالسحر عن دين الله، فإنه ليس له في يوم القيامة نصيب ولبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون^(٢)، وهذا تحذير من السحر لأنه لا يتم إلا بالشرك، والشرك منافي للتوحيد^(٣).

وقد بين سبحانه وتعالى أن السحر باطل؛ لأنه يسبب الإفساد بين الناس، ومن كان شأنه كذلك فماله إلى زوال لا محالة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨٠-٨١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: ٧٧].

أي: لا يظفر الساحر بالحاجة والغلبة،

(٢) انظر: الجديدي في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص ٢١٩.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ٢٢٠.

(١) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح آل الشيخ ٥٠١-٥٠٢.

لأنه باطل، والباطل لا يغلب الحق^(١).

٣. الشرك في الدعاء.

هو الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل وإضافة الجود والكرم إليه^(٢).

ويمكن القول بأن شرك الدعاء هو: سؤال العبد غير الله؛ من الأنبياء، والأولياء، وغيرهم، فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل؛ ويدخل في ذلك الاستغاثة، والاستعانة، والاستعاذة، بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ من طلب رزق، أو شفاء مريض، أو إحياء ميت، أو غير ذلك؛ فقد أشرك مع الله غيره، سواء أكان ذلك الغير نبيا، أو وليا، أو جنيا، أو غير ذلك من المخلوقات^(٣).

والأدلة على كون دعاء غير الله تعالى شركا كثيرة، منها:

قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ١٣﴾ ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) ^(١٧) ^(١٨) ^(١٩) ^(٢٠) ^(٢١) ^(٢٢) ^(٢٣) ^(٢٤) ^(٢٥) ^(٢٦) ^(٢٧) ^(٢٨) ^(٢٩) ^(٣٠) ^(٣١) ^(٣٢) ^(٣٣) ^(٣٤) ^(٣٥) ^(٣٦) ^(٣٧) ^(٣٨) ^(٣٩) ^(٤٠) ^(٤١) ^(٤٢) ^(٤٣) ^(٤٤) ^(٤٥) ^(٤٦) ^(٤٧) ^(٤٨) ^(٤٩) ^(٥٠) ^(٥١) ^(٥٢) ^(٥٣) ^(٥٤) ^(٥٥) ^(٥٦) ^(٥٧) ^(٥٨) ^(٥٩) ^(٦٠) ^(٦١) ^(٦٢) ^(٦٣) ^(٦٤) ^(٦٥) ^(٦٦) ^(٦٧) ^(٦٨) ^(٦٩) ^(٧٠) ^(٧١) ^(٧٢) ^(٧٣) ^(٧٤) ^(٧٥) ^(٧٦) ^(٧٧) ^(٧٨) ^(٧٩) ^(٨٠) ^(٨١) ^(٨٢) ^(٨٣) ^(٨٤) ^(٨٥) ^(٨٦) ^(٨٧) ^(٨٨) ^(٨٩) ^(٩٠) ^(٩١) ^(٩٢) ^(٩٣) ^(٩٤) ^(٩٥) ^(٩٦) ^(٩٧) ^(٩٨) ^(٩٩) ^(١٠٠) ^(١٠١) ^(١٠٢) ^(١٠٣) ^(١٠٤) ^(١٠٥) ^(١٠٦) ^(١٠٧) ^(١٠٨) ^(١٠٩) ^(١١٠) ^(١١١) ^(١١٢) ^(١١٣) ^(١١٤) ^(١١٥) ^(١١٦) ^(١١٧) ^(١١٨) ^(١١٩) ^(١٢٠) ^(١٢١) ^(١٢٢) ^(١٢٣) ^(١٢٤) ^(١٢٥) ^(١٢٦) ^(١٢٧) ^(١٢٨) ^(١٢٩) ^(١٣٠) ^(١٣١) ^(١٣٢) ^(١٣٣) ^(١٣٤) ^(١٣٥) ^(١٣٦) ^(١٣٧) ^(١٣٨) ^(١٣٩) ^(١٤٠) ^(١٤١) ^(١٤٢) ^(١٤٣) ^(١٤٤) ^(١٤٥) ^(١٤٦) ^(١٤٧) ^(١٤٨) ^(١٤٩) ^(١٥٠) ^(١٥١) ^(١٥٢) ^(١٥٣) ^(١٥٤) ^(١٥٥) ^(١٥٦) ^(١٥٧) ^(١٥٨) ^(١٥٩) ^(١٦٠) ^(١٦١) ^(١٦٢) ^(١٦٣) ^(١٦٤) ^(١٦٥) ^(١٦٦) ^(١٦٧) ^(١٦٨) ^(١٦٩) ^(١٧٠) ^(١٧١) ^(١٧٢) ^(١٧٣) ^(١٧٤) ^(١٧٥) ^(١٧٦) ^(١٧٧) ^(١٧٨) ^(١٧٩) ^(١٨٠) ^(١٨١) ^(١٨٢) ^(١٨٣) ^(١٨٤) ^(١٨٥) ^(١٨٦) ^(١٨٧) ^(١٨٨) ^(١٨٩) ^(١٩٠) ^(١٩١) ^(١٩٢) ^(١٩٣) ^(١٩٤) ^(١٩٥) ^(١٩٦) ^(١٩٧) ^(١٩٨) ^(١٩٩) ^(٢٠٠) ^(٢٠١) ^(٢٠٢) ^(٢٠٣) ^(٢٠٤) ^(٢٠٥) ^(٢٠٦) ^(٢٠٧) ^(٢٠٨) ^(٢٠٩) ^(٢١٠) ^(٢١١) ^(٢١٢) ^(٢١٣) ^(٢١٤) ^(٢١٥) ^(٢١٦) ^(٢١٧) ^(٢١٨) ^(٢١٩) ^(٢٢٠) ^(٢٢١) ^(٢٢٢) ^(٢٢٣) ^(٢٢٤) ^(٢٢٥) ^(٢٢٦) ^(٢٢٧) ^(٢٢٨) ^(٢٢٩) ^(٢٣٠) ^(٢٣١) ^(٢٣٢) ^(٢٣٣) ^(٢٣٤) ^(٢٣٥) ^(٢٣٦) ^(٢٣٧) ^(٢٣٨) ^(٢٣٩) ^(٢٤٠) ^(٢٤١) ^(٢٤٢) ^(٢٤٣) ^(٢٤٤) ^(٢٤٥) ^(٢٤٦) ^(٢٤٧) ^(٢٤٨) ^(٢٤٩) ^(٢٥٠) ^(٢٥١) ^(٢٥٢) ^(٢٥٣) ^(٢٥٤) ^(٢٥٥) ^(٢٥٦) ^(٢٥٧) ^(٢٥٨) ^(٢٥٩) ^(٢٦٠) ^(٢٦١) ^(٢٦٢) ^(٢٦٣) ^(٢٦٤) ^(٢٦٥) ^(٢٦٦) ^(٢٦٧) ^(٢٦٨) ^(٢٦٩) ^(٢٧٠) ^(٢٧١) ^(٢٧٢) ^(٢٧٣) ^(٢٧٤) ^(٢٧٥) ^(٢٧٦) ^(٢٧٧) ^(٢٧٨) ^(٢٧٩) ^(٢٨٠) ^(٢٨١) ^(٢٨٢) ^(٢٨٣) ^(٢٨٤) ^(٢٨٥) ^(٢٨٦) ^(٢٨٧) ^(٢٨٨) ^(٢٨٩) ^(٢٩٠) ^(٢٩١) ^(٢٩٢) ^(٢٩٣) ^(٢٩٤) ^(٢٩٥) ^(٢٩٦) ^(٢٩٧) ^(٢٩٨) ^(٢٩٩) ^(٣٠٠) ^(٣٠١) ^(٣٠٢) ^(٣٠٣) ^(٣٠٤) ^(٣٠٥) ^(٣٠٦) ^(٣٠٧) ^(٣٠٨) ^(٣٠٩) ^(٣١٠) ^(٣١١) ^(٣١٢) ^(٣١٣) ^(٣١٤) ^(٣١٥) ^(٣١٦) ^(٣١٧) ^(٣١٨) ^(٣١٩) ^(٣٢٠) ^(٣٢١) ^(٣٢٢) ^(٣٢٣) ^(٣٢٤) ^(٣٢٥) ^(٣٢٦) ^(٣٢٧) ^(٣٢٨) ^(٣٢٩) ^(٣٣٠) ^(٣٣١) ^(٣٣٢) ^(٣٣٣) ^(٣٣٤) ^(٣٣٥) ^(٣٣٦) ^(٣٣٧) ^(٣٣٨) ^(٣٣٩) ^(٣٤٠) ^(٣٤١) ^(٣٤٢) ^(٣٤٣) ^(٣٤٤) ^(٣٤٥) ^(٣٤٦) ^(٣٤٧) ^(٣٤٨) ^(٣٤٩) ^(٣٥٠) ^(٣٥١) ^(٣٥٢) ^(٣٥٣) ^(٣٥٤) ^(٣٥٥) ^(٣٥٦) ^(٣٥٧) ^(٣٥٨) ^(٣٥٩) ^(٣٦٠) ^(٣٦١) ^(٣٦٢) ^(٣٦٣) ^(٣٦٤) ^(٣٦٥) ^(٣٦٦) ^(٣٦٧) ^(٣٦٨) ^(٣٦٩) ^(٣٧٠) ^(٣٧١) ^(٣٧٢) ^(٣٧٣) ^(٣٧٤) ^(٣٧٥) ^(٣٧٦) ^(٣٧٧) ^(٣٧٨) ^(٣٧٩) ^(٣٨٠) ^(٣٨١) ^(٣٨٢) ^(٣٨٣) ^(٣٨٤) ^(٣٨٥) ^(٣٨٦) ^(٣٨٧) ^(٣٨٨) ^(٣٨٩) ^(٣٩٠) ^(٣٩١) ^(٣٩٢) ^(٣٩٣) ^(٣٩٤) ^(٣٩٥) ^(٣٩٦) ^(٣٩٧) ^(٣٩٨) ^(٣٩٩) ^(٤٠٠) ^(٤٠١) ^(٤٠٢) ^(٤٠٣) ^(٤٠٤) ^(٤٠٥) ^(٤٠٦) ^(٤٠٧) ^(٤٠٨) ^(٤٠٩) ^(٤١٠) ^(٤١١) ^(٤١٢) ^(٤١٣) ^(٤١٤) ^(٤١٥) ^(٤١٦) ^(٤١٧) ^(٤١٨) ^(٤١٩) ^(٤٢٠) ^(٤٢١) ^(٤٢٢) ^(٤٢٣) ^(٤٢٤) ^(٤٢٥) ^(٤٢٦) ^(٤٢٧) ^(٤٢٨) ^(٤٢٩) ^(٤٣٠) ^(٤٣١) ^(٤٣٢) ^(٤٣٣) ^(٤٣٤) ^(٤٣٥) ^(٤٣٦) ^(٤٣٧) ^(٤٣٨) ^(٤٣٩) ^(٤٤٠) ^(٤٤١) ^(٤٤٢) ^(٤٤٣) ^(٤٤٤) ^(٤٤٥) ^(٤٤٦) ^(٤٤٧) ^(٤٤٨) ^(٤٤٩) ^(٤٥٠) ^(٤٥١) ^(٤٥٢) ^(٤٥٣) ^(٤٥٤) ^(٤٥٥) ^(٤٥٦) ^(٤٥٧) ^(٤٥٨) ^(٤٥٩) ^(٤٦٠) ^(٤٦١) ^(٤٦٢) ^(٤٦٣) ^(٤٦٤) ^(٤٦٥) ^(٤٦٦) ^(٤٦٧) ^(٤٦٨) ^(٤٦٩) ^(٤٧٠) ^(٤٧١) ^(٤٧٢) ^(٤٧٣) ^(٤٧٤) ^(٤٧٥) ^(٤٧٦) ^(٤٧٧) ^(٤٧٨) ^(٤٧٩) ^(٤٨٠) ^(٤٨١) ^(٤٨٢) ^(٤٨٣) ^(٤٨٤) ^(٤٨٥) ^(٤٨٦) ^(٤٨٧) ^(٤٨٨) ^(٤٨٩) ^(٤٩٠) ^(٤٩١) ^(٤٩٢) ^(٤٩٣) ^(٤٩٤) ^(٤٩٥) ^(٤٩٦) ^(٤٩٧) ^(٤٩٨) ^(٤٩٩) ^(٥٠٠) ^(٥٠١) ^(٥٠٢) ^(٥٠٣) ^(٥٠٤) ^(٥٠٥) ^(٥٠٦) ^(٥٠٧) ^(٥٠٨) ^(٥٠٩) ^(٥١٠) ^(٥١١) ^(٥١٢) ^(٥١٣) ^(٥١٤) ^(٥١٥) ^(٥١٦) ^(٥١٧) ^(٥١٨) ^(٥١٩) ^(٥٢٠) ^(٥٢١) ^(٥٢٢) ^(٥٢٣) ^(٥٢٤) ^(٥٢٥) ^(٥٢٦) ^(٥٢٧) ^(٥٢٨) ^(٥٢٩) ^(٥٣٠) ^(٥٣١) ^(٥٣٢) ^(٥٣٣) ^(٥٣٤) ^(٥٣٥) ^(٥٣٦) ^(٥٣٧) ^(٥٣٨) ^(٥٣٩) ^(٥٤٠) ^(٥٤١) ^(٥٤٢) ^(٥٤٣) ^(٥٤٤) ^(٥٤٥) ^(٥٤٦) ^(٥٤٧) ^(٥٤٨) ^(٥٤٩) ^(٥٥٠) ^(٥٥١) ^(٥٥٢) ^(٥٥٣) ^(٥٥٤) ^(٥٥٥) ^(٥٥٦) ^(٥٥٧) ^(٥٥٨) ^(٥٥٩) ^(٥٦٠) ^(٥٦١) ^(٥٦٢) ^(٥٦٣) ^(٥٦٤) ^(٥٦٥) ^(٥٦٦) ^(٥٦٧) ^(٥٦٨) ^(٥٦٩) ^(٥٧٠) ^(٥٧١) ^(٥٧٢) ^(٥٧٣) ^(٥٧٤) ^(٥٧٥) ^(٥٧٦) ^(٥٧٧) ^(٥٧٨) ^(٥٧٩) ^(٥٨٠) ^(٥٨١) ^(٥٨٢) ^(٥٨٣) ^(٥٨٤) ^(٥٨٥) ^(٥٨٦) ^(٥٨٧) ^(٥٨٨) ^(٥٨٩) ^(٥٩٠) ^(٥٩١) ^(٥٩٢) ^(٥٩٣) ^(٥٩٤) ^(٥٩٥) ^(٥٩٦) ^(٥٩٧) ^(٥٩٨) ^(٥٩٩) ^(٦٠٠) ^(٦٠١) ^(٦٠٢) ^(٦٠٣) ^(٦٠٤) ^(٦٠٥) ^(٦٠٦) ^(٦٠٧) ^(٦٠٨) ^(٦٠٩) ^(٦١٠) ^(٦١١) ^(٦١٢) ^(٦١٣) ^(٦١٤) ^(٦١٥) ^(٦١٦) ^(٦١٧) ^(٦١٨) ^(٦١٩) ^(٦٢٠) ^(٦٢١) ^(٦٢٢) ^(٦٢٣) ^(٦٢٤) ^(٦٢٥) ^(٦٢٦) ^(٦٢٧) ^(٦٢٨) ^(٦٢٩) ^(٦٣٠) ^(٦٣١) ^(٦٣٢) ^(٦٣٣) ^(٦٣٤) ^(٦٣٥) ^(٦٣٦) ^(٦٣٧) ^(٦٣٨) ^(٦٣٩) ^(٦٤٠) ^(٦٤١) ^(٦٤٢) ^(٦٤٣) ^(٦٤٤) ^(٦٤٥) ^(٦٤٦) ^(٦٤٧) ^(٦٤٨) ^(٦٤٩) ^(٦٥٠) ^(٦٥١) ^(٦٥٢) ^(٦٥٣) ^(٦٥٤) ^(٦٥٥) ^(٦٥٦) ^(٦٥٧) ^(٦٥٨) ^(٦٥٩) ^(٦٦٠) ^(٦٦١) ^(٦٦٢) ^(٦٦٣) ^(٦٦٤) ^(٦٦٥) ^(٦٦٦) ^(٦٦٧) ^(٦٦٨) ^(٦٦٩) ^(٦٧٠) ^(٦٧١) ^(٦٧٢) ^(٦٧٣) ^(٦٧٤) ^(٦٧٥) ^(٦٧٦) ^(٦٧٧) ^(٦٧٨) ^(٦٧٩) ^(٦٨٠) ^(٦٨١) ^(٦٨٢) ^(٦٨٣) ^(٦٨٤) ^(٦٨٥) ^(٦٨٦) ^(٦٨٧) ^(٦٨٨) ^(٦٨٩) ^(٦٩٠) ^(٦٩١) ^(٦٩٢) ^(٦٩٣) ^(٦٩٤) ^(٦٩٥) ^(٦٩٦) ^(٦٩٧) ^(٦٩٨) ^(٦٩٩) ^(٧٠٠) ^(٧٠١) ^(٧٠٢) ^(٧٠٣) ^(٧٠٤) ^(٧٠٥) ^(٧٠٦) ^(٧٠٧) ^(٧٠٨) ^(٧٠٩) ^(٧١٠) ^(٧١١) ^(٧١٢) ^(٧١٣) ^(٧١٤) ^(٧١٥) ^(٧١٦) ^(٧١٧) ^(٧١٨) ^(٧١٩) ^(٧٢٠) ^(٧٢١) ^(٧٢٢) ^(٧٢٣) ^(٧٢٤) ^(٧٢٥) ^(٧٢٦) ^(٧٢٧) ^(٧٢٨) ^(٧٢٩) ^(٧٣٠) ^(٧٣١) ^(٧٣٢) ^(٧٣٣) ^(٧٣٤) ^(٧٣٥) ^(٧٣٦) ^(٧٣٧) ^(٧٣٨) ^(٧٣٩) ^(٧٤٠) ^(٧٤١) ^(٧٤٢) ^(٧٤٣) ^(٧٤٤) ^(٧٤٥) ^(٧٤٦) ^(٧٤٧) ^(٧٤٨) ^(٧٤٩) ^(٧٥٠) ^(٧٥١) ^(٧٥٢) ^(٧٥٣) ^(٧٥٤) ^(٧٥٥) ^(٧٥٦) ^(٧٥٧) ^(٧٥٨) ^(٧٥٩) ^(٧٦٠) ^(٧٦١) ^(٧٦٢) ^(٧٦٣) ^(٧٦٤) ^(٧٦٥) ^(٧٦٦) ^(٧٦٧) ^(٧٦٨) ^(٧٦٩) ^(٧٧٠) ^(٧٧١) ^(٧٧٢) ^(٧٧٣) ^(٧٧٤) ^(٧٧٥) ^(٧٧٦) ^(٧٧٧) ^(٧٧٨) ^(٧٧٩) ^(٧٨٠) ^(٧٨١) ^(٧٨٢) ^(٧٨٣) ^(٧٨٤) ^(٧٨٥) ^(٧٨٦) ^(٧٨٧) ^(٧٨٨) ^(٧٨٩) ^(٧٩٠) ^(٧٩١) ^(٧٩٢) ^(٧٩٣) ^(٧٩٤) ^(٧٩٥) ^(٧٩٦) ^(٧٩٧) ^(٧٩٨) ^(٧٩٩) ^(٨٠٠) ^(٨٠١) ^(٨٠٢) ^(٨٠٣) ^(٨٠٤) ^(٨٠٥) ^(٨٠٦) ^(٨٠٧) ^(٨٠٨) ^(٨٠٩) ^(٨١٠) ^(٨١١) ^(٨١٢) ^(٨١٣) ^(٨١٤) ^(٨١٥) ^(٨١٦) ^(٨١٧) ^(٨١٨) ^(٨١٩) ^(٨٢٠) ^(٨٢١) ^(٨٢٢) ^(٨٢٣) ^(٨٢٤) ^(٨٢٥) ^(٨٢٦) ^(٨٢٧) ^(٨٢٨) ^(٨٢٩) ^(٨٣٠) ^(٨٣١) ^(٨٣٢) ^(٨٣٣) ^(٨٣٤) ^(٨٣٥) ^(٨٣٦) ^(٨٣٧) ^(٨٣٨) ^(٨٣٩) ^(٨٤٠) ^(٨٤١) ^(٨٤٢) ^(٨٤٣) ^(٨٤٤) ^(٨٤٥) ^(٨٤٦) ^(٨٤٧) ^(٨٤٨) ^(٨٤٩) ^(٨٥٠) ^(٨٥١) ^(٨٥٢) ^(٨٥٣) ^(٨٥٤) ^(٨٥٥) ^(٨٥٦) ^(٨٥٧) ^(٨٥٨) ^(٨٥٩) ^(٨٦٠) ^(٨٦١) ^(٨٦٢) ^(٨٦٣) ^(٨٦٤) ^(٨٦٥) ^(٨٦٦) ^(٨٦٧) ^(٨٦٨) ^(٨٦٩) ^(٨٧٠) ^(٨٧١) ^(٨٧٢) ^(٨٧٣) ^(٨٧٤) ^(٨٧٥) ^(٨٧٦) ^(٨٧٧) ^(٨٧٨) ^(٨٧٩) ^(٨٨٠) ^(٨٨١) ^(٨٨٢) ^(٨٨٣) ^(٨٨٤) ^(٨٨٥) ^(٨٨٦) ^(٨٨٧) ^(٨٨٨) ^(٨٨٩) ^(٨٩٠) ^(٨٩١) ^(٨٩٢) ^(٨٩٣) ^(٨٩٤) ^(٨٩٥) ^(٨٩٦) ^(٨٩٧) ^(٨٩٨) ^(٨٩٩) ^(٩٠٠) ^(٩٠١) ^(٩٠٢) ^(٩٠٣) ^(٩٠٤) ^(٩٠٥) ^(٩٠٦) ^(٩٠٧) ^(٩٠٨) ^(٩٠٩) ^(٩١٠) ^(٩١١) ^(٩١٢) ^(٩١٣) ^(٩١٤) ^(٩١٥) ^(٩١٦) ^(٩١٧) ^(٩١٨) ^(٩١٩) ^(٩٢٠) ^(٩٢١) ^(٩٢٢) ^(٩٢٣) ^(٩٢٤) ^(٩٢٥) ^(٩٢٦) ^(٩٢٧) ^(٩٢٨) ^(٩٢٩) ^(٩٣٠) ^(٩٣١) ^(٩٣٢) ^(٩٣٣) ^(٩٣٤) ^(٩٣٥) ^(٩٣٦) ^(٩٣٧) ^(٩٣٨) ^(٩٣٩) ^(٩٤٠) ^(٩٤١) ^(٩٤٢) ^(٩٤٣) ^(٩٤٤) ^(٩٤٥) ^(٩٤٦) ^(٩٤٧) ^(٩٤٨) ^(٩٤٩) ^(٩٥٠) ^(٩٥١) ^(٩٥٢) ^(٩٥٣) ^(٩٥٤) ^(٩٥٥) ^(٩٥٦) ^(٩٥٧) ^(٩٥٨) ^(٩٥٩) ^(٩٦٠) ^(٩٦١) ^(٩٦٢) ^(٩٦٣) ^(٩٦٤) ^(٩٦٥) ^(٩٦٦) ^(٩٦٧) ^(٩٦٨) ^(٩٦٩) ^(٩٧٠) ^(٩٧١) ^(٩٧٢) ^(٩٧٣) ^(٩٧٤) ^(٩٧٥) ^(٩٧٦) ^(٩٧٧) ^(٩٧٨) ^(٩٧٩) ^(٩٨٠) ^(٩٨١) ^(٩٨٢) ^(٩٨٣) ^(٩٨٤) ^(٩٨٥) ^(٩٨٦) ^(٩٨٧) ^(٩٨٨) ^(٩٨٩) ^(٩٩٠) ^(٩٩١) ^(٩٩٢) ^(٩٩٣) ^(٩٩٤) ^(٩٩٥) ^(٩٩٦) ^(٩٩٧) ^(٩٩٨) ^(٩٩٩) ^(١٠٠٠) ^(١٠٠١) ^(١٠٠٢) ^(١٠٠٣) ^(١٠٠٤) ^(١٠٠٥) ^(١٠٠٦) ^(١٠٠٧) ^(١٠٠٨) ^(١٠٠٩) ^(١٠١٠) ^(١٠١١) ^(١٠١٢) ^{(١٠١٣)</}

﴿٨٣﴾ [النحل: ٨٣].

فالكفار يقولون بأنها كلها من الله تعالى، ثم ينكرونها بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم، إنها بشفاعة آلهتنا، أو بترك الشكر عليها، أو يعرفونها في الشدة، وينكرونها في الرخاء، أو يعرفونها بقلوبهم، ويجحدونها بألسنتهم ﴿وَأَكْفُرْهُمْ﴾ **الْكُفْرُوتُ** ﴿٤﴾ أي: المنكرون بقلوبهم غير المعترفين بما ذكر (٤).

وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها، وهو الله جل جلاله، فالواجب على العبد أن يعلم أن كل النعم من الله جل وعلا، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل وعلا، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال التوحيد، ونوع شرك بالله جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٥٠﴾ [فصلت: ٥٠].

أي: لئن أذقناه عافية من بعد سقم، أو غنى من بعد فقر؛ ليقولن: هذا لي، أي: هذا من

من جلب نفع أو دفع ضرر، إذ الذي يدعى لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر (١).

دعاء المسألة والطلب لا يعد كله شركا، فالإنسان إما أن يدعو مخلوقا حيا بأمر يدرکه وهذا جائز، كسؤال الفقير، وإما أن يدعو مخلوقا مطلقا حيا كان أو ميتا فيما لا يقدر عليه إلا الله، مثل: يا فلان! اجعل ما في بطن امرأتي ذكرا؛ فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا من فعل الله عز وجل الذي لا يستطيعه البشر، ولا يقدره عليه، وإما أن يدعو مخلوقا لا يجيب بالوسائل الحسية المعلومة؛ كدعاء الأموات؛ فهذا شرك أكبر أيضا؛ لأن هذا لا يقدر عليه المدعو. ولا يقع مثل هذا النوع من الدعاء إلا إذا اعتقد الداعي في المدعو شيئا سريريا يدبره الأمور (٢).

٤. نسبة النعم لغير الله تعالى.

إن من تمام التوحيد نسبة النعم إلى الله عز وجل، فمن نسب النعمة إلى غيره تعالى، فقد كفر؛ لأنه جعل شريكا مع الله في الإنعام (٣).

قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْفُرْهُمْ﴾ **الْكُفْرُوتُ**

(١) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان جمعة ضميرية، ص ٣١٧.
(٢) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٧.

(٣) انظر: الجديد في شرح كتاب التوحيد، محمد القرعاوي، ص ٣٥٩.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي، ص ٦١٦، أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ٣٣٠.

فمن تحقيق التوحيد نسبة النعم لمسديها
وواهبها، وهو الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

حقى؛ استوجبته بتقواي وصلاحي، أو بقوتي
واجتهادي. وهو في عداد المتكبرين^(١).

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن
الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا
يُسْتَلْعَن دُنُوبُهُمْ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

[٧٨].

فهذه مقولة المغرور الذي ينسى مصدر
النعمة، فقارون نسي من وهبه النعمة، وركن
إلى السبب، وهو أن هذا الثراء والغنى إنما
حصله من علمه وبجهد الخاص، فجاءه
التهديد والوعيد من الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم
أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَنْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْتَلْعَن دُنُوبُهُمْ
الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]^(٢).

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿قَلَمًا
ءَاتَيْنَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَاهُمَا﴾
[الأعراف: ١٩٠].

أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله
النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم،
وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم
أن يشكروا الله على إنعامه، وأن لا يعبدوا
أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله،
فإن ذلك كفران للنعم منافی للتوحيد^(٣).

(١) انظر: أوضح التفاسير، الخطيب ١/٥٨٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٧١٢.

(٣) انظر: القول السديد شرح كتاب التوحيد،
السعدي، ص ١٥٩.

مراتب الشرك

لقد حذر القرآن الكريم من الشرك أيًا كان نوعه، حمايةً لجنان التوحيد، وحرصًا على أهله، لأنه إما أن يخرج صاحبه من الإسلام ويحرمه نعمة التوحيد ويورده النار، وإما أن ينافي كماله، وقد ينتهي به إلى الخروج من الإسلام آخر الأمر^(١).

وقد قسم أهل العقيدة الشرك إلى مرتبتين: شرك أكبر، وشرك أصغر (خفي)^(٢). وستناول ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: الشرك الأكبر:

وهو «اتخاذ العبد غير الله من نبي أو ولي أو جماد أو حيوان ندًا مساويًا لله، يحبه كحبه ويخافه ويخشاه كخشيته إلخ»^(٣).

وعرفه الدكتور عبد القادر صوفي فقال: «إثبات شريك لله عز وجل في خصائصه؛ فيجعل الإنسان ندًا لله في ربوبيته، أو في ألوهيته، أو في أسمائه وصفاته»^(٤).

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

عرف ابن القيم الطاغوت بقوله: ما تجاوز به العبد حده: من معبود، أو متبوع، أو مطاع^(٥).

وقد وصف الله تعالى الشرك بالظلم العظيم، فقال على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَلَيْذَ قَالَ لِقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ففي الآية يوصي لقمان ولده الذي هو أشفق الناس عليه، وحقيقة أن يمنحه أفضل ما يعرف؛ بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا.

وينقسم الشرك الأكبر إلى أقسام^(٦)، وبيانها فيما يأتي:

١. شرك في الربوبية.

وهو أن يجعل لغير الله تعالى معه نصيبًا من الملك أو التدبير أو الخلق أو الرزق الاستقلالي^(٧).

ويمكن القول بأنه نسبة أفعال الله تعالى لغيره من الخلق، حيًا كان أو ميتًا، كالرزق، التصرف في الكون، الإحياء، الإماتة إلخ،

(٥) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٨٢.

(٦) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي، ص ١١٢.

(٧) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين، ص ١٥٢.

(١) انظر: حماية الرسول صلى الله عليه وسلم

حمى التوحيد، محمد الغامدي، ص ٢٧١.

(٢) انظر: تفسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله ص ٢٨.

(٣) مختصر معارج القبول، ص ١٣٢.

(٤) المفيد في مهمات التوحيد، ص ١١١.

وَنِعِدْ فَإِنِّي فَارِهِبُونَ ﴿٥١﴾ [النحل: ٥١].

٣. شرك الطاعة، قال تعالى:

﴿أَتَخَذُوا آبَاءَهُمْ وَرَهَبَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾
[التوبة: ٣١].

٤. شرك المحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾
[البقرة: ١٦٥].

٥. شرك الشفاعة، قال تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ
اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾
[يونس: ١٨]. قال الطبري: أي:
كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند
الله (٤).

٦. شرك النية، والإرادة والقصد: هو

أن يريد العبد بعمله غير الله تعالى، كأن
يعمل عملاً صالحاً يبتغي به الدنيا (٥)،
قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

(٤) انظر: جامع البيان ١٢/١٤٢.

(٥) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر
الصوفي، ص ١١٣.

ومثاله أيضاً شرك النصارى بقولهم: ﴿لَقَدْ
كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلْدَفُ﴾
[المائدة: ٧٣] (١).

٢. شرك في الأسماء والصفات.

وهو التسوية بين الله والخلق في شيء
من الأسماء والصفات؛ بأن يجعل لله عز
وجل ندا في أسمائه وصفاته؛ فيسميه بأسماء
الله، أو يصفه بصفاته (٢)، كشرك الممثلة:
وهو اعتقاد أن صفات الخالق تماثل صفات
المخلوق، كمن يقول: يد الله كيدي، فهذا
كله شرك.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
[الشورى: ١١].

٣. الشرك الأكبر في الألوهية.

وهو أن يجعل العبد لله ندا في العبادة، أو
في التشريع (٣)، وهو على أنواع، منها:

١. شرك الدعاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا
رَكِبُوا فِي الْفَالِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الْأَيْنَ فَلَمَّا بَجَحْتُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ
﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢. شرك الخوف، قال تعالى: ﴿وَقَالَ
اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ

(١) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر
الصوفي، ص ١١٣.

(٢) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله
الجبرين، ص ١٥٥.

(٣) انظر: المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر
الصوفي، ص ١١٤.

وبينت الآية شرطي العبادة المقبولة عند الله تعالى، وهما: الموافقة للشرعية، وعدم الإشراف بالله تعالى^(٤).

قال العثيمين: «قال ﴿بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ ليتبين لك أنه جل وعلا حقيق بأن لا يشرك به؛ لأنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع المخلوقات»^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فالآية ليست دليلاً فقط على من عبد غير الله، بل تشمل الرياء، والطيرة، والحلف بغير الله، وتعليق الثمائم.. إلخ^(٦).

قال محمد أبو زهرة في أحد وجوه تفسيره للآية: «أنها تحمل على أن أكثر الناس تعتبرهم حال إشراف مهمما أخلصوا التوحيد لله تعالى، فالأوهام تسيطر على الناس، وقد أدت بالوثنيين إلى عبادة الأوثان، ولكنها بالنسبة لمن جاء بعدهم أدت بهم إلى أوهام حول الأشخاص، لم يعبدوهم ولكن اعتقدوا فيهم قوى خفية، والآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الحرص على التوحيد، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، وأن يبعدوا عن الأوهام المضلة، فلا يعتقدون في مخلوق أن فيه قوة تشفي، أو تنفع، فإن

وَزِينَنَّا نُوَفِّ إِلَهُمَ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾» [هود: ١٥-١٦].

صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من عمل عملاً يريد به الحياة الدنيا أعطاه جزاء عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة إلا النار^(١).

ثانياً: الشرك الأصغر:

عرفه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي بأنه: «كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك»^(٢).

ويمكن القول: إن الشرك الأصغر كل ما ينافي كمال التوحيد قولاً كان، أو فعلاً، أو نية.

والدليل على وجود الشرك الأصغر: قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الزمخشري: «أي: أن لا يراني بعمله، وأن لا يبتغي به إلا وجه ربه خالصاً لا يخلط به غيره»^(٣).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٨٣.

(٥) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف، ص ١٥٣.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١٨.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنيطي ٢/ ١٧٤.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص ١٧٨.

(٣) الكشف ٢/ ٧٥١.

أسباب الشرك

للانحراف عن عقيدة التوحيد أسباب كثيرة، تتعلق بتفكير الفرد والجماعة، أو طبيعة التربية التي نشأ عليها الفرد، حتى غدا لهذه التربية نوع من القداسة في نفسه، وفي هذا البحث سنقف على بعض هذه الأسباب التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، ويمكن بيان ذلك فيما يأتي:

أولاً: تعظيم المخلوقين:

دأب كثير من الناس على احترام وحب أصحاب المكانة من الناس، من مسؤولين، ورؤساء قبائل وعشائر، وحكام، وقادة عسكريين وخلافه، حتى غدا حبيهم يملأ القلوب، وليس العيب هنا، ولكن بالغت فئة في هذا الحب، حتى غدا شكلاً من أشكال التبعية العمياء، التي قادت إلى نوع من التقديس والصد عن سبيل الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۗ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [سبأ: ٣٣].

الأوهام أدت إلى الشرك في جاهلية العرب وأدت النصراني إلى التثليث، ولا تزال الأوهام تسيطر عليهم حتى أدت بهم إلى عبادة الأحجار والصور والتمثيل^(١).

(١) زهرة التفاسير ٧/ ٣٨٧٠ - ٣٨٧١.

وفي الآية الأولى يبين الله عز وجل موقف فئة من العصاة يوم القيامة؛ ممن حق عليهم العذاب من المشركين، وقد كانوا يعظمون السادة والكبراء من قومهم حتى أردوهم المهالك، فتمنوا يوم القيامة أن لو كانوا أطاعوا الله رسوله، ثم ينكسون رؤوسهم حسرة وندامة لطاعتهم السادة والكبراء، والأظهر أنهم الرؤساء في الشرك والضلالة، فطاعوهم في معصية الله، فأضلهم هؤلاء السادة عن طريق التوحيد^(١)، فصدوهم عن طريق الحق فوقعوا في الشرك.

والآية الثانية تصور لنا تصويرًا مؤثرًا بديعًا، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم، ومن عداوة وبغضاء، ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر، بدون احترام من الأتباع لزعمائهم الذين كانوا يدينون لهم بالذلة والخضوع طوعية، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التي كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم في الحياة الدنيا، وأصبح الجميع يوم الحساب في الذلة سواء^(٢).

ولما أنكر المستكبرون أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، قال المستضعفون: ما كان الإجماع من جهتنا، بل من جهة مكرهم بنا دائماً، ليلاً ونهاراً،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٤٩/١٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٢٩٦/١١.

وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد^(٣).

ثانيًا: التقليد:

ميز الله تعالى الإنسان بالفكر، ليعرف به الخير من الشر في الاعتقاد، والصدق من الكذب^(٤)، وأكرمه بالعلم والإرادة، ومنحه نعمة العقل، التي بها يقوى على الاختيار، والتميز بين ما يضر وينفع، فأبى كثير من الناس إلا تعطيل هذه النعمة، ورفض هذه الكرامة، فحجروا على عقولهم، وأبوا إلا التقليد والتبعية العمياء للمورث من الأقدمين، آباء وقادة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقد ندد الله بهذا التقليد، وجعل من يتشبثون به في درجة أخط من البهائم والأنعام، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَأْذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فمن أغفل نعم الله وعطّلها وعلى رأسها نعمة العقل والتفكير والتميز، فهو من أصحاب هذه الآية.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٤٩٨/٤.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣٦٧/١.

اتباع آثار عدوه وعدوهم، أعلمهم وهو ربهم أن الشيطان لا يأمرهم إلا بما يضر أبدانهم وأرواحهم، ولا يرد لهم إلا إلى ما سيء الأفعال والأخلاق، وأفزع من ذلك أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فيحرمون ويحللون ويشرعون باسم الله، والله في ذلك بريء، فلما قال لهم رسول الله، اتبعوا ما أنزل الله، قالوا: لا، بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا، ولو كان باطلاً، فهم يقلدون آبائهم ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً من أمور الشرع والدين، ولا يهتدون إلى ما فيه الصلاح والخير^(٢).

٣. التقليد في المعصية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨].

تتناول الآية الكريمة الحديث عن قبح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، ويزعمون أن الله أمرهم بذلك، فإذا فعلوا فعلة قبيحة ينكرها الشرع، قالوا: إنا وجدنا آبائنا هكذا يفعلون، نحن نقفدي بهم، وغير ذلك من التقليد الأعمى، الذي يرفضه الشرع، والأدهى من ذلك قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقل لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء أصلاً، وإنما الذي يأمركم بهذا هو

وقد جاء تقليد المشركين في صور متعددة، بين منها القرآن ما يأتي:

١. التقليد في العبادة والاعتقاد.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣].

لما أنكر إبراهيم على أبيه وقومه قيامهم على هذه الأصنام والصور التي كانوا يعبدونها دون الله، ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، فلم يجد القوم جواباً إلا طريقة التقليد، التي توجب مزيد النكير، لأنه إذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آبائهم أيضاً سلكوا هذا الطريق، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

فبين أن الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به^(١)، ولو كانت هذه الكثرة هم الآباء والأقدمون والأجداد، ومن لهم في النفس حب، لصلة أو قرابة.

٢. التقليد في الحكم والشرائع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠].

ففي الآية بعد أن نهى الله المؤمنين عن

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٤٥.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٥٢.

الشیطان، وكيف تعتذرون باتباعكم آباءكم؟ وهل آباؤكم حجة في التشريع؟ وهل عملوا بوحى من الله وإرشاد؟ أم كانت أعمالهم بوسوسة الشيطان وزخرفته؟! أم أنتم تقولون على الله ما لا تعلمون؟ فتشريع الله لا يكون إلا بوحى منه إلى رسوله^(١)، وهذا هو الشرك بعينه.

ثالثاً: اتباع الهوى:

الهوى ما عشقته النفس، ومالت إليه من الحفظ والعاجلة، ويجري ذلك في المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، والجاه، ورفع المنزلة، فليجاهد العبد نفسه في ترك ذلك كله، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة تقرب إلى الله^(٢).

وجاءت الشريعة الغراء تحت المؤمنين على الارتقاء بالنفس البشرية إلى أعلى الدرجات، والنأي بها عن سفاسف الأمور وحقيرها، لذلك كانت أوامرها السمحة، تحمّل الإنسان على معالي الأمور وعظيمها، ولما كانت النفس تميل إلى الراحة والدعة، فقد ندد الله بمن أبى إلا مجارة هوى نفسه والهبوط بها فقال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

فجعل هوى نفسه مطاعاً، حتى غدا هواه

(١) انظر: التفسير الواضح، الحجازي ٧٠٥/١.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣١٢/٥.

إلهًا يعبد دون الله، ويشتهى فيطاع.

وقد جاء السياق القرآني مندداً باتباع الهوى لما له من أثر في حرف الناس عن عقيدة التوحيد وجادة الطريق، وبيان ذلك فيما يأتي:

❁ الهوى يحمل على الشرك في العقيدة.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فكل من استباح لنفسه كل ما تهواه، سواء كان مباحاً أو غير مباح، فكأنه يعبد هواه، كما يعبد الرجل إلهه^(٣)، فإن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى، فمن صرف ذلك لهواه فقد جعل للهوى ما هو من خصائص الله، فماذا بقي من الشرك؟!

قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣].

تتناول الآية التنديد بالمشرّكين لاتخاذهم أصناماً تعبد دون الله، وجعلوا لها أسماء ليس لها نصيب منها إلا إطلاق تلك الأسماء عليها، ولو كانت الألوهية متحققة بمجرد التسمية كانت آلهة، لكنها أماني وأهواء زعموها وتوهموا أنها حقيقة،

(٣) انظر: المصدر السابق ٣١١/٥.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

فقلوبهم لا تنقاد إلا لأهل باطلهم، وما أشربوا من هوى أنفسهم.
❖ رفض التذلل والخضوع لله.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصْصِعُهُمْ فِي مَادَانِهِمْ وَاسْتَفْسَحُوا يَدَهُمْ وَآصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

أي: كلما دعوتهم للإيمان الذي تترتب عليه المغفرة، قابلوا ذلك بالمبالغة في الكبر، وجعلوا أنفسهم أكبر من أن يأتروا لواحد منهم، وتأكيد استكبروا بمفعوله المطلق للدلالة على تمكن الاستكبار^(١).

فحملهم الكبر على التعالي على الله عز وجل والانقياد لدعوته، وتكوين ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ للتعظيم، أي: استكبارًا شديدًا لا يفله حد الدعوة.

❖ تكذيب المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

أي: «كلما جاء بني إسرائيل رسول من

عند الله لا يجاريهم في أهوائهم استكبروا عليه وخالفوه وكذبوه أو قتلوه»^(٢).

ومما سبق يتضح لنا أن الكبر حاجب للإنسان عن صفاء العقيدة، وباب كبير من أبواب الصد عن عقيدة التوحيد.

خامسًا: الجهل بالله وأسمائه وصفاته:

جاء السياق القرآني الكريم بكثير من الآيات التي دعت الإنسان للتفكير في هذا الكون من حولنا، والتدبر في كتاب الله تعالى، ليصل إلى معرفة ربه وعبادته وحده بلا شريك.

ولكن كثيرًا من الناس جمدوا عقولهم، وأغلقوا قلوبهم عن وظيفتها الحقيقية، فلم تعرف ربها، وما قدرته حق قدره.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

والله سبحانه لم يترك عباده هملاً، بل عرفهم بأسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

أي: لله الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء، لأنها تدل على معان حسنة، من

(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ١٩٣/٦.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩٦/٢٩.

يفعلون ما يشاؤون، ثم بعد ذلك يعاقب المسيء.

❖ نسبة الولد لله.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) بَيْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)

[الأنعام: ١٠٠-١٠١].

وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله، والقائلين: إن الجن تعلم الغيب، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ونحو هذا، أما الذين ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ﴾ فاليهود في ذكر عزيز والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكرو البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله (٣)، وما حملهم أن ينسبوا لله الأولاد والبنات إلا جهلهم بصفة وحدانية الله عز وجل.

❖ نسبة الفواحش لله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

[الأعراف: ٢٨].

لما سئل المشركون عن سبب ارتكابهم المعاصي الفاحشة -والتي منها الطواف

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٢٩.

تمجيد، وتقديس، وغير ذلك، فسموه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، أي: واتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنی، وبما لا يجوز عليه (١).

وقد بين القرآن الكريم الكثير من انحراف المشركين في أسماء الله تعالى وصفاته، ما حملهم على العدول عن عقيدة التوحيد والإشراك بالله تعالى، وبيان ذلك فيما يأتي: ❖ إنكار رسالة الرسل.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْنَاهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١) [الأنعام: ٩١].

إن مدار القرآن على إثبات التوحيد والنبوة، فالله تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أثبت التوحيد، وأبطل الشرك، ذكر بعده تقرير أمر النبوة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حين أنكروا النبوة والرسالة، وكل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته (٢)، لأن مقتضى ذلك أن الله ترك الناس هملاً،

(١) انظر: الكشف، الزمخشري ٢/ ١٨٠.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٢٧٤.

عرايا بالبيت- أجابوا بأنهم وجدوا عليها آباءهم، وأن الله أمرهم بذلك، وهم في ردهم الأولى صادقون وصادقون وإن كانوا غير محقين، وفي ردهم الثاني كاذبون، إذ كيف يأمر الله تعالى بها؟ والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد، ثم قال تعالى ردا عليهم ﴿أَنقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، فادعاهم بأن الله أمر بهذه القبائح والفواحش يدل على جهلهم بأسماء الله وصفاته والتي منها «القدوس»، وهذا الإلحاد بأسمائه مرده الجهل.

سادساً: إهمال العقل وعدم التفكير في آيات الله:

إن الله تعالى جعل لكل عضو من أعضاء الإنسان وظيفة، لأجلها خلق، فإن عجز عن أداء دوره، كان سقيماً مريضاً، والعقل إنما خلق للتفكير والتدبر، وقيادة البدن نحو معرفة الله، وإلزام الجوارح هديه، فإن ضل العقل عن معرفة ربه، كان سقيماً وقاد صاحبه نحو الضلال والغواية.

لذلك فإننا نرى أن الكثير من الآيات الكريمة التي تعدد آيات الله ونعمه في هذا الكون، غالباً ما يعقبها الآيات التي تدعو الناس إلى عقيدة التوحيد، وتندد بالمشركين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١٦٤) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَزِرُّونَ الْعَذَابَ أَنَّ قُوَّةَ اللَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ^(١٦٥) [البقرة: ١٦٤-١٦٥].

فلما نهضت الأدلة على وحدانية الله، وسطعت البراهين، وزاحت العلل والشكوك، عاب من عبد سواه، وفزع إلى غيره، ولما حاد من حاد عن التوحيد وعبد سواه بسبب تعطيله لنعمة التفكير، عقب الآية الأولى بقوله ﴿يَعْقِلُونَ﴾، فهو لاء ناس ضلت عقولهم، وقالت آراؤهم، ويتبرأ بعضهم من بعض يوم ينكشف حجاب الغفلة عن سرادق العظمة، ويتجلى الجبار في صفة النعمة، فمن الناس من عقل تلك الآيات، فأمن بربه وفني في حبه، ومنهم وهم من لا يعقل، وهم من اتخذوا الأنداد^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٩٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٣٠١.

الرسول ومجاربة الشرك

إن من أهم أصول شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين القضاء على الشرك ومحاربته وتصفية معاقله وإنهاء وجوده وآثاره بين الناس.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰ اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ أَقْبَنَّا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي يُخَسِّرُكُمْ فِي الْغَنَاءِ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧١-٧٣].

قال الزحيلي: «هذه حملة شديدة من الجدل والنقاش واللوم على الشرك والمشركين، والمعنى: قل أيها النبي في احتجاجك على المشركين: أنطيع رأيكم في أن نعبد من دون الله ما لا قدرة له على نفعنا ولا على ضررنا؛ لأنها أصنام صماء جمادات لا حياة فيها ولا حركة، ثم نرد على أعقابنا إلى الشرك والكفر، بعد أن أنقذنا الله منه»^(١).

لَا يَنْتَوِي أُولَى الْأَلْبَسِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١١٣﴾ رَبَّنَا وَآيِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٤].

فأهل الإيمان والتوحيد، يهديهم إيمانهم إلى الإقرار بوحداية الله، والتصديق بما جاءت به المرسلون، فيقرون أن الله تعالى لم يخلق ذلك عبثاً - وحاشاه -، فيتوددون له بطلب الرحمة والمغفرة، وتكفير السيئات، بخلاف من يجادلون في الله بغير علم، ومن يجهلون أسماء ويلحدون في ذلك.

(١) التفسير الوسيط ١/ ٥٦٩.

وتعتبر محاربة الشرك أساس دعوة الأنبياء في جميع عهود الرسالة السماوية؛ فالتوحيد في العبادة وتحطيم أغلال الشرك والوثنية كان من أهم التعاليم السماوية التي تحتل مكان الصدارة في رسالات الأنبياء عليهم السلام حتى كأن الأنبياء والرسول لم يبعثوا -أجمع- إلا لهدف واحد هو تثبيت دعائم التوحيد ومحاربة الشرك، لقد ذكر القرآن هذه الحقيقة بجلاء، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل.

أولاً: على وجه الإجمال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم التوحيد في العبادة بأنه الأصل المشترك بين جميع الشرائع السماوية إذ يقول: ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَآلَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَّيْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فجميع الرسل كان أول وأهم ما دعوا إليه هو التوحيد، توحيد الله بالعبادة وتقواه

وطاعته واطاعة رسله. يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية: «اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك، كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا»^(١).

ثانياً: على وجه التفصيل:

• نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِذْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

• إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ هَمَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

• هود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الْأُمُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ٢١.

يَنْبَغِي لِاسْتِكْرَامِ رَبِّكَ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾
[المائدة: ٧٢].

يعقوب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَاتَاكَ إِزْهَارَهُ وَالسَّيْعِيلَ وَالسَّحْقَ إِلَهًا وَجَدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

يوسف عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

سيد البشر وخاتم الأنبياء والرسل
محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ بَيِّنَاتٍ الْكَافِرُونَ﴾
﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ
﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك،

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَعْبُدُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَعْبُدُوا أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٦١].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فِإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

شعيب عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَدِينُوا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ مَدِينُوا أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَقْنَطُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ

أساليب القرآن في معالجة المشركين

المحاجة: وردت مادتها في القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً^(٣)، وهو قريب من الحوار والجدل، وقد فسر الجدل بالتحاج، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧]. أي: لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم^(٤).

ولقد اتبع القرآن العديد من الأساليب لإثبات وحدانيته، ومن هذه الأساليب: أولاً: أسلوب الإدراك الحسي:

قدم القرآن العديد من الأدلة الكونية التي تثبت وجود الله ووحدانيته وتكشف عجز ألهتهم وضعفها، منها:

❁ دليل الخلق والإبداع.

لقد خلق الله هذا الكون وأبدع في خلقه، ومن إبداع خلق الله هو خلق الإنسان والسموات، ويعتمد هذا الدليل على إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها، والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه^(٥).

فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقرؤا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس^(١).

هذه هي دعوة الأنبياء والتي بذلوا من أجلها الغالي والنفيس، وتعاقبوا عليها على مر التاريخ.

يقول سيد قطب رحمه الله: ﴿يَقْوَمُ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فهي حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله، ويتعاقب بها الرسل جميعاً على مدار التاريخ؛ فكل رسول يجيء إنما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها، فنسوها وضلوا عنها، وأشركوا مع الله آلهة أخرى - على اختلاف هذه الآلهة في الجاهليات المختلفة - وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل، وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجي المؤمنين^(٢).

(٣) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الباقي ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٧٨/٥، فتح القدير، الشوكاني ٥١١/١.

(٥) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٢، ٩/١١٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٣٠٤.

أن يخالفوا عن أمره»^(١).

❖ دليل العناية الإلهية.

لقد حف الله هذا الكون بالرعاية الإلهية الكاملة الشاملة لكل أفرادها ولو انعدمت لاختلت توازناته وكان مصيره الفناء، ويسمى هذا الدليل دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزائه بحيث يكمل بعضها بعضاً وقدر كل شيء فيه تقديرًا، هو الله الواحد الأحد، ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ^(٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٣٣) [الأنبياء: ٣١-٣٣]^(٢).

ثانيًا: أسلوب البرهاني العقلي:

هذا الأسلوب يقوم على الاستدلال والتحليل والتركيب، ومن أبرز البراهين العقلية التي استخدمها القرآن هي البراهين البديهية.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِفُونَ﴾^(٣٤) [الطور: ٣٥].

(١) التحرير والتنوير ٢٠/ ٥١.

(٢) انظر: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، محمد ملكاوي، ص ١٤٧.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَدِيرُونَ﴾^(٣٥) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(٣٦) [البقرة: ١١٦-١١٧].

فالخلق والإبداع دليل على وجود وحدانية الله تعالى، وهذه حقيقة لم ينكرها المشركون.

❖ دليل النظام الكوني.

إن النظام الكوني وما فيه من تقدير وإتقان، حجة أقامها القرآن الكريم في إثبات ألوهية الله وزيف ألوهية غيره؛ فوجود إله آخر مع الله تعالى أمر مستحيل عقلاً، وهناك أدلة كونية تفيد هذا.

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةَ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٣٧) [الأنبياء: ٢٢].

وقال أيضًا: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادٍ وَهِيَ تَمُورُ مِنَ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣٨) [النمل: ٨٨].

قال ابن عاشور: «وجملة ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير، عقب قوله ﴿الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لأن إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم، فالذي بعلمه أنقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق، فليحذروا

﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] (١).

وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦].

فالاختتمالات العقلية التي تشير لها الآيات في قضية الخلق احتمالان ونتيجة:
١. أن العدم أوجدهم، وهو احتمال باطل.
٢. أن بعض المخلوقات خلقت بعضها الآخر، وهو احتمال باطل
النتيجة: هي أن يكون هناك خالق متصف بالكمال، وهو الله.

ثالثاً: أسلوب التحدي وكشف حقائق الآلهة الزائفة:

من خلال هذا الأسلوب استخدم القرآن أسلوب التحدي في كشف حقائق الآلهة المزعومة، ولقد تحدى القرآن الآلهة المزعومة أن يكون لها أثر في الخلق والإيجاد، فمثلاً لقد خلق الله الإنسان وأبدع في خلقه، فما هو خلق هذه الآلهة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَفَتُنَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُونَ مِنْ عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

ولقد تحدى الله تعالى من يشكون في نزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن يأتوا بمثل القرآن، أو عشر سور، أو سورة، فعجزوا عن ذلك، قال تعالى:

(١) انظر: المصدر السابق.

للمؤمنين من نكاح محصناتهن، مثل الذي أباح لهم من نساء المؤمنات»^(١).

وقال ابن كثير: «هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا من المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]^(٢).

وعليه فنساء أهل الكتاب حل للمسلمين لما جاء القرآن بتخصيصهن من عموم المشركين والكفار، فيجوز التزوج بهن، ولكن بشرط أن تكون عفيفة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٥].

روي عن الحسن والشعبي وإبراهيم والسدي أنهم العفاف^(٣).

أحكام تتعلق بالمشركين في القرآن

لقد فرض الله أحكاماً على عباده المؤمنين تنظم حياتهم وشؤونهم مع من حولهم من المؤمنين وحتى المشركين، وفي هذا المبحث سيتناول الباحث أحكام التعامل مع المشركين في النكاح، والمعاملات المالية، والسلم والحرب، والبر والقسط، بل والاستغفار لهم.

أولاً: النكاح:

لقد حرم الله تعالى نكاح المشركات حيث قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا يُؤْمِنُ ۚ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيَسِّرُ الْبَيْتَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ويقصد بالمشركة في هذه الآية الوثنية، قال الطبري: «إن الله تعالى ذكره عنى بقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ﴾ من لم يكن من أهل الكتاب من المشركات، وأن الآية عام ظاهرها خاص باطنها، لم ينسخ منها شيء، وأن نساء أهل الكتاب غير داخلات فيها، وذلك أن الله تعالى ذكره أحل بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

(١) جامع البيان ٤/ ٣٦٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٤.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٣٢٣.

ثانيًا: المعاملات المالية:

أمر الإسلام أتباعه أن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة قائمة على الرفق والسهولة والسماحة في جميع أمور الحياة وشؤونها؛ من البيع والشراء، والأجرة والكراء؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى)^(١).

وهذا النص يشمل التعامل مع المسلم وغير المسلم، وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال مكارم الأخلاق، وترك المشاحنة، والحض على ترك التضيق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم^(٢).

وعن عبدالرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما قال: (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بيعًا أم عطية، أو قال: أم هبة؟ فقال: لا، بيع، فاشترى منه شاة)^(٣).

وعند ابن قدامة: إذا ركب القوم في البحر، فاستقبلهم فيه تجار مشركون من أرض العدو ويريدون بلاد الإسلام، لم يعرضوا لهم، ولم

يقاتلوهم، وكل من دخل بلاد المسلمين من أرض الحرب بتجارة ببيع، ولم يسأل عن شيء^(٤)، فلغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

وكان صلى الله عليه وسلم يعامل مخالفه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: (توفى النبي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين، يعني: صاعًا من شعير)^(٥).

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة، في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية، كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا؛ فإنه محرم عليهم كالمسلمين، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحرف المختلفة، وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شتى الأزمان^(٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، رقم ٢٠٧٦، ٥٧/٣.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، رقم ٢٢١٦، ٨٠/٣.

(٤) انظر: المغني، ابن قدامة ٩/ ٢٤٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ٤١، رقم ٢٩١٦.

(٦) انظر: التعامل مع الآخر، إبراهيم المزيني، ص ١٠٩.

فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنُودَ لِلَّهِ فِئَةٍ مَّا أَقْبَحَتْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وفيما يلي تفصيل موقف المسلمين مع المشركين في السلم والحرب.

١. موقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم.

يقف الإسلام من غير المسلمين في حال السلم موقف الأمان، بل إنه لم ينه عن البر بهم ما داموا لم يقاتلوا المسلمين، وإنما ينهى عن البر بالذين قاتلوا المسلمين في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [٨] إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا بِعَدَاوَتِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَمَنْ يُؤْمَمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

قال الطبري: «فأذن الله للمؤمنين ببرهم والإحسان إليهم» (٢).

ولقد دعا الإسلام إلى توثيق العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين بحل النزاور والمؤاكلة معهم، وهي لا تكون إلا بين الأصدقاء والمتحايين.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ

ويجوز الوقف عليهم أو وقفهم على المسلمين، قال ابن القيم: أما وقف المسلم عليه - على أهل الذمة - فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم، أو على أقاربه، وبني فلان ونحوه (١).

ثالثاً: السلم والحرب:

لقد حفلت نصوص القرآن ومواقف السيرة النبوية بما يدل على أن الإسلام يؤثر دائماً السلام، حتى مع خصومه من المشركين، ومن أدلة ذلك أن القرآن الكريم أورد كلمة السلم بمشتقاتها مئة وأربعين مرة، في حين ذكرت الحرب بمشتقاتها ست مرات فقط.

والفرق بين العديدين هو الفرق بين نظرة الإسلام إلى كلا الأمرين، ومن ثم في ميل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كل منهما؛ ففي معظم أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبحث عن الطرق السلمية والهادئة للتعامل مع المخالفين له، ويحرص على تجنب الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ويؤكد هذا النظرة العديد من الآيات التي أمرت بالسلم مع غير المسلمين إن أبدى هؤلاء الاستعداد والميل للصلح والسلام،

(١) انظر: أحكام أهل الذمة ٦٠٣/١.

(٢) جامع البيان ٣٢٢/٢٣.

وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴿٥﴾ [المائدة: ٥].

ولقد عاش المسلمون مع النصارى واليهود في تسامح وأمن، يتمتع غير المسلمين في بلاد الإسلام بكافة الحقوق في التعليم، والعمل، والعبادة على أكمل وأتم وجه، وهذا هو الطريق الذي سلكه الإسلام لتنظيم حالة السلم^(١).

ونهى القرآن الكريم عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَالِغِي أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بل أمر بجمع الكلمة بينهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

كما أمر الإسلام بالوفاء بالعهد معهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

بل لو طلب المشرك من المسلم أن يجيره فعليه أن يجيره، بل ويبلغه مأمنه، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

قال النسفي: «وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى، وليس له الإقامة في دارنا، ويمكن من العود»^(٢).

٢. موقف الإسلام من غير المسلمين في الحرب.

إن الإسلام هو دين السلام، لا يأمر بالحرب إلا في الضرورة القصوى التي تستدعي الدفاع والجهاد في سبيل الله، ومع مشروعية الجهاد في سبيل الله دفاعاً عن الدين والعقيدة والأرض والعرض، فإن الحرب في الإسلام لها حدود وضوابط، وللمسلمين أخلاقهم التي يتخلقون بها حتى في حربهم مع من يحاربهم من غير المسلمين.

فأمر الإسلام بالحفاظ على أموال الغير، وبترك الرهبان في صوامعهم دون التعرض لهم، ونهى الإسلام عن الخيانة والغدر والغلول، كما نهى عن التمثيل بالقتلى، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعن حرق النخيل والزروع، وقطع الأشجار المثمرة.

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٤.

(٢) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.

عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعَدْتَنِي عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾ [البقرة: ١٩٤].
أما الذين لا يقاتلون من غير
المسلمين فكان النبي صلى الله عليه
وسلم ينهى عن قتالهم؛ فعن سليمان
بن بريدة، عن أبيه، قال: (كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا
على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصته
بتقوى الله، ومن معه من المسلمين
خيرا، ثم قال: اغزوا باسم الله في
سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا
ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا
تقتلوا وليداً) (٢).

رابعاً: البر والقسط:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين ببر غير
المسلمين والإحسان إليهم: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ
عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٨﴾ [الممتحنة: ٨].

أمر الله تعالى بالتعامل بالحنى
والمعروف والعدالة والإنصاف مع كل
شخص لم يعاد المسلمين، أي ما كانت
عقيدته، ومن هذه الآية أوجبت حقوق كثيرة

وأوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه
أسامة بن زيد عندما وجهه إلى الشام بالوفاء
بالعهد وعدم الغدر أو التمثيل، وعاهد خالد
بن الوليد أهل الحيرة ألا يهدم لهم بيعة ولا
كنيسة ولا قصراً، ولا يمنعهم من أن يدقوا
نواقيسهم أو أن يخرجوا صلبانهم في أيام
أعيادهم (١).

ومن توجيهات الإسلام للمسلمين في
الحرب:

﴿أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ
تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤].
﴿أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ لِمَنْ يَقَاتِلُونَ
المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿عَدَمُ الِاعْتِدَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا
إِلَّا اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].
فَالَّذِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى
المسلمين وَيَقَاتِلُونَهُمْ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ
أَنْ يَقَاتِلُوهُمْ، وَلَكِنَّهُ قِتَالٌ عَادِلٌ بِمَعْنَى
أَلَّا يَمَثُلُوا بِأَحَدٍ وَبِلَا تَعْذِيبٍ، حَيْثُ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ
وَالْحَرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ آعَدَنِي عَلَيْكُمْ فَأَعَدُوا

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المغازي،
باب وصية أمراء الجيش، رقم ٤٥٤٢،
١٣٩/٥.

(١) انظر: الخراج، القاضي أبو يوسف، ص ١٥٧.

لغير المسلمين على المسلمين^(١).

وهي قاعدة عريضة في معاملة غير المسلمين، فهي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرتة إلى الحياة الإنسانية، بل نظرتة الكلية لهذا الوجود، الصادر عن إله واحد، المتجه إلى إله واحد، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي من وراء كل اختلاف وتنوع^(٢).

وقد أوجب الله على المسلمين بر الوالدين والإحسان إليهما ولو كانا مشركين.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتُمْ كَرِيمٌ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال ابن كثير: يقول تعالى أمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]^(٣).

كما أمر الإسلام المسلمين أن يؤتوا ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم ولو كانوا غير مسلمين.

قال تعالى: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقَرْيَةِ حَقًّا وَالْمُسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَلَا تُبْذَرِ تَبَذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها، قال: نعم، صليها)^(٤)، وأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]^(٥).

ولقد بين القرآن الكريم أنه لا يصح ولا يجوز الاستغفار للمشركين بعد إصرارهم على الشرك وموتهم على ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ مِنَ الشَّيْءِ أَمْنًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٦٤.

(٤) مدارك التنزيل ١/ ٦٦٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢.

(١) انظر: إلام الموقعين، ابن القيم ٣/ ٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٤٤.

وفي رواية أخرى فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] (٣).

وهذا لا يتعارض مع استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ ابْنَاهُمْ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ ابْنَهُمْ لِآثِمٌ خُلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].
دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه، قال تعالى: ﴿وَاعْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

وقال أيضًا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي﴾ [نوح: ٢٨].

وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].
وقال أيضًا: ﴿لَا قَوْلَ ابْنَاهُمْ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المستحنة: ٤].

وقد ثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز. فكيف يجوز لإبراهيم ذلك؟؟

أجاب الرازي عن هذه المسألة فقال: واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال أن فيه قولين: الأول: أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أن أباه وعده

قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ [التوبة: ١١٣].

قال الطبري: ما كان ينبغي للنبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به أن يدعوا بالمغفرة للمشركين، ولو كان المشركون الذين يستغفرون لهم ذوي قرابة لهم من بعد ما ماتوا على شركهم بالله وعبادة الأوثان، وتبين لهم أنهم من أهل النار، لأن الله قد قضى أن لا يغفر لمشرك، فلا ينبغي لهم أن يسألوا ربهم أن يفعل ما قد علموا أنه لا يفعله (١).

عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: (لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال: أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل؛ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك؛ فنزلت: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] (٢).

(١) انظر: جامع البيان ٥٠٩/١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم ٤٦٧٥، ٦٩/٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)، رقم ٤٧٧٢، ١١٢/٦.

عداوة المشركين للمسلمين

إن عداوة المشركين والكفار واليهود للإسلام والمسلمين مستمرة إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

وعداوتهم تتمثل في كراهية الخير لهم، والصد عن الإسلام ومحاربتهم، وإيذاء المسلمين حيث كانوا وبشتى الطرق، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولاً: كراهة الخير للمسلمين:

أخبر الله عن شدة عداوة الكفار للمسلمين بقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

قال ابن كثير: «يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر تعالى من مشابعتهم للمؤمنين؛ ليقطع المودة بينهم وبينهم»^(٢).

قال البيضاوي: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ نزلت تكديماً لجمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين، ويزعمون أنهم يودون لهم

أن يؤمن، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له لأجل أن يحصل هذا المعنى، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه، وترك ذلك الاستغفار. الثاني: أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن (وعدها أباه) بالباء^(١).

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٦/ ١٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٧٥.

الخير»^(١).

والكفار مهما عملوا فعداوتهم لا تنقطع، فهم وإن نطقوا ألسنتهم بالموادعة، فإن قلوبهم تأبى إلا الغدر والكيد للإسلام وأهله.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأُقْوَاهُمْ وَأَتَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

قال المراغي: «كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جريتم وفاءهم عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء وعند رسوله وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم في القوة والغلب، لا يرقبوا الله ولا القرابة في نقض العهد والميثاق»^(٢).

ويلفتنا الشعراوي إلى نكتة عظيمة، فيقول: «نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل: كيف يكون للمشركين عهد، بل اكتفى بـ (كيف)، لأن غدرهم صار معروفاً، وكانت «كيف» الأولى استفهاماً عن أمر مضى»^(٣).

والمنافقون حالهم حال المشركين، فهم كفار بين المسلمين، فالبغضاء تبدو من أفواههم، والحق يدمل قلوبهم، ولكن

(١) أنوار التنزيل ١/ ٩٩.

(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٦٢.

(٣) تفسير الشعراوي ٨/ ٤٩٠٠.

الله لهم بالمرصاد، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ تَسْتَكْتُمُوهُمْ سَتُكْتُمُوهُمْ وَإِنْ تَنْصُرُوهُمْ صَيَّرُوا بِهِنَّ وَإِنْ تَصِفُوا لَهُمْ شَيْئًا يَأْكُلُوهَا إِذْ يَمْنُ فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِرُّوا كُنْهَافًا يَكْفُرُوا بِهَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال الطبري: «إن تنالوا، أيها المؤمنون، سروراً بظهوركم على عدوكم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وتصديق نبيكم ومعاونتكم على أعدائكم يسؤهم، وإن تنلكم مساة بإخفاق سرية لكم، أو بإصابة عدو لكم منكم، أو اختلاف يكون بين جماعتكم، يفرحوا بها»^(٤).

ثانياً: الصد عن الإسلام:

لقد تجلت عداوة المشركين للإسلام والمسلمين في الصد عن سبيل الله، وسبيل الله هنا بمعنى (اتباع الرسل)، فهؤلاء الكفار لا يكتفون برفض دعوة الرسل لهم، ولكنهم يصرفون الناس عن اتباع ما جاءت به الرسل، وهذا الصد يكون بالرفض تارة، وبالإكراه تارة، وبالتهديد تارة، وبالتشويه والتحريف تارة، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾

(٤) جامع البيان ٧/ ١٥٥.

[الأعراف: ٨٦].

ولما كان دأب هؤلاء هو التشهير بالدعوة والدعاة فقد رد عليهم القرآن بمثل ما فعلوا، فشهّر الله تعالى بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين أنهم معادون لمولاهم ومعادون للحق ومعادون لأنفسهم في اعتراض دعوة الرسل وتنفير الناس منها، ولقد ذكر الله تعالى أمثال هؤلاء في غير موضع من القرآن، فهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تُصَدُّوْنَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ مِنْ ءٰمَنَ تَبَغَوْاْ عِوَجًا وَّأَنْتُمْ شٰهَدَآءٌ وَمَا اللّٰهُ يَغْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ ۝١١﴾ [آل عمران: ٩٩].

فكان جزاء هؤلاء من جنس عملهم ولبس ما عملوا. وهؤلاء المشركون ينفقون أموالهم في سبيل غاياتهم اللعينة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: «إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين ليتقوا بها على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان

بالله ورسوله»^(١).

ولا يألوا المشركون جهداً في سبيل صدهم عن سبيل الله أن يردوا من آمن عن إيمانه فضلاً عن منعه من دخول الدين.

قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمٰنِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَأَصَفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللّٰهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩].

يقول ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين من سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم»^(٢).

ولقد توعد الله الصادقين عن سبيله من المشركين والكفار بالعذاب الشديد.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨].

قال الزمخشري: «الذين كفروا في أنفسهم، وحملوا غيرهم على الكفر: يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم. وقيل: في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت

(١) المصدر السابق ١٣/ ٥٢٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٢.

المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم، و﴿حَقَّ﴾ للتعليل، أي: لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم أو بمعنى إلى، أي: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يؤذوا المسلمين بردهم بعد إيمانهم كافرين.

إن إيذاء المسلمين ورد فيه وعيد شديد وعقوبة أخروية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ۝﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨].

قال البيضاوي: «إن الذين يؤذون الله ورسوله يرتكبون ما يكرهانه من الكفر والمعاصي، أو يؤذون رسول الله بكسر رباعيته وقولهم: شاعر مجنون، ونحو ذلك» (٢).

وقال ابن عاشور: «والمراد بالأذى: أذى القول بقرينة قوله: ﴿فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ لأن البهتان من أنواع الأقوال، وذلك تحقير لأقوالهم، وأتبع ذلك التحقير بأنه إثم

وعقارب أمثال البغال، تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفاً. وقيل: يخرجون من النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار بما كانوا يفسدون بكونهم مفسدين الناس بصددهم عن سبيل الله» (١).

ثالثاً: إيذاء المسلمين:

لقد انتهج المشركون سياسة الإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم، ولصحابته الكرام من بعده، ولمن تبعهم إلى يومنا هذا، بل لكل مسلم إلى قيام الساعة؛ فهذا هو دينهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَظْلَمُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فهذه الآية تدل بوضوح على ذلك؛ فهي بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها، أي: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم سوء ويداومون على إيذاكم لكي يرجعوك عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه، والتعبير بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يفيد الدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٢٣٨.

(١) الكشف ٢/ ٦٢٧.

مبين. والمراد بالمبين: العظيم القوي، أي : جرما من أشد الجرم، وهو وعيد بالعقاب عليه^(١).

لقد آذى المشركون صحابة رسول الله، واعتدوا عليهم، وخاصة من الفقراء والأرقاء، ومن لا نصير لهم، وفتنهم وعذبوهم، ما بين محبوس ومعذب أو مطارد وملاحق، ومنهم من لقي الله شهيداً. عن عبد الله بن مسعود قال: (كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوا أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم أحد إلا وآثامهم على ما أرادوا، إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد)^(٢).

عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم: (مر بعمار بن ياسر وبأهله

وهم يعذبون في الله، فقال: أبشروا آل ياسر، موعدكم الجنة)^(٣).

عن خباب بن الارت قال: (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله، ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: إن كان من كان قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنيين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)^(٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، ١٤١/٢، رقم ١٥٠٨، والحاكم في المستدرک، ٣/٣٨٨.

قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخبراه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم ٣٦١٢، ٢٠١/٤.

(١) التحرير والتنوير ٢٢/١٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨٢/٦، رقم ٣٨٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد، ٥٣/١، رقم ١٥٠. وحسنه الألباني في التعليقات الحسان، ١٧٢/١٠.

الهامة^(١).

ومن الأمثال القرآنية التي ضربها الله للناس مثلاً لأهل التوحيد وأهل الشرك، قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرَجُلٌ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

ووجه التمثيل أن الله شبه حال المشرك الذي يعبد آلهة متعددة، بحال عبد له أكثر من سيد يخدمه ويطيعه، فكل واحد منهم يأمره بما لا يأمره به الآخر، فبعضهم يقول له: افعل، وبعضهم يقول له: لا تفعل؛ وبعضهم يقول له: أقبل، وبعضهم يقول له: لا تقبل؛ فهو حائر في أمرهم، لا يدري أيهم يرضي، فإن أَرْضَى هذا أغضب ذاك، فهو لأجل هذه الحال يعيش في عذاب دائم، وتعب مستمر، أما مثل حال المؤمن الموحد فقد شبهه سبحانه بحال العبد الذي يعمل تحت إمرة سيد واحد، فلا أمر لأحد عليه إلا أمر ذلك السيد، ولا نهى، لأحد عليه إلا نهى ذلك السيد، فهو مطيع له على كل حال، وهو ساع لكسب وده ونيل رضاه من غير ملال. ثم هو غير مشتبك الهوى، ولا مبعثر القوى؛ لأن وجهته واحدة غير متعددة، ومقصوده واحد غير متناقض^(٢).

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص

الشرك في المثل القرآني

ضرب الأمثال للناس أسلوب قرآني، اعتمده القرآن لتقريب الحقائق، للتفريق بين ما هو حق فيتبعوه، وما هو باطل فيجتنبوه، وللتمييز بين ما هو خير فيتمسكوا به، وما هو شر فيبتعدوا عنه، فقد ذكر القرآن أمثال أهل الخير وأهل الشر، وأمثال أهل الحق وأهل الباطل، وأمثال أهل التوحيد وأهل الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وقال أيضاً: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال جزء من البيان الإلهي، تسهم في إبراز الحقائق الإيمانية من خلال أسلوبها المتميز الفعال في تشخيص الحقائق والإقناع، والفصل عند الاشتباه والخلاف، وخاصة قضايا الإيمان التي وقع فيها الخلاف؛ كالأصول التي يبنى عليها الإيمان بالله، وأسباب الهدى والضلال، وتوحيد الألوهية وما يضاده من الشرك، والبعث بعد الموت، وحقيقة الأنبياء والأولياء، وأن ليس لهم ولا فيهم من خصائص الألوهية شيء، وحال الدنيا وسرعة زوالها، وسوء عاقبة الاغترار بها، ونحو ذلك من القضايا

أراد الله من هذا المثل بيان حال من يعبد آلهة متعددة، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبية، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّاهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد، يدعو هذا ثم يدعو ذاك، لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، فهو حائر مشتبك القلب والذهن؛ بخلاف الموحّد فهو في راحة تامة وطمأنينة كاملة. وهكذا سنة الحياة جارية على أن تعدد الرؤساء يفسد الأمر، ويشتت السعي. قال الرازي: «وهذا مثل ضرب في غاية الحسن في تقيح الشرك وتحسين التوحيد»^(١).

إذ المقصود من ضرب هذا المثل إقامة الحجة على المشركين، وتعنيفهم لأجل مواقفهم الراضية للاعتراف بالواحد الأحد، وكشف سوء حالتهم في الإشراك. وضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً آخر للتوحيد والشرك، فقد مثل التوحيد بالشجرة

الطيبة، والشرك بالشجرة الخبيثة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٢﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

شبه سبحانه وتعالى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بالشجرة الطيبة، وهي النخلة الضاربة جذورها في أعماق التربة وفروعها مرتفعة في السماوات، والكلمة الخبيثة، وهي الشرك، كالشجرة الخبيثة، وهي الحنظلة إذا استوصلت، فلم يبق لها أثر ولا أصل في الأرض، وقد ورد عن ابن عباس، وبه قال جمهور المفسرين أن الكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وأن الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر^(٢).

وفي هذا التشبيه حكم بليغة وأسرار كثيرة؛ لأن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والتوحيد، ليطابق المشبه بالمشبه به، فشجرة التوحيد عروقتها الثابتة: العلم والمعرفة واليقين، وساقها: الإخلاص لله، وفروعها: الأعمال الصالحة، وثمرها: الأخلاق الحميدة الزكية، فإذا كانت هذه

دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاء، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١].

وقال أيضًا: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].
وقال أيضًا: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ [يس: ٧٥].

وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَنْجِيصًا﴾ [هود: ١٠١].

فهذه مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكثر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده^(٢).

الأمور مطابقة لأمر الله بأن يكون العلم موافقاً لمعلومه الذي أنزل الله به كتابه، وكان الاعتقاد مطابقاً لما أخبر الله به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله، وكان الإخلاص قائماً في القلب، والأعمال موافقة للشرع، علم أن شجرة التوحيد في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإن كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فكما أن هذه الشجرة الخيثة ليس لها أصل ثابت، ولا فرع ثابت، ولا فائدة فيها، فكذلك الشرك ليس له أصل يأخذ به المشرك ولا برهان، ولا يقبل الله مع الشرك عملاً، ولا يصعد إلى الله، فليس له أصل في الأرض ولا فرع في السماء^(١).

ومنها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء، أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت وأضعفها، ويفيد هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من

(٢) انظر: الأمثال في القرآن، ابن القيم، ص ١٣.

(١) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٦٧.

الآثار المترتبة على الشرك

إن التوحيد ما فطر الله عليه الإنسان السوي، وهو الذي يستقيم به الكون وحياة الإنسان، بينما الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة، وفيما يلي تفصيل ذلك.

أولاً: الآثار المترتبة على الشرك في الدنيا:

١. فقد الطمأنينة والأمن.

فالمشرك لا يتمتع بالطمأنينة التي يتمتع بها المؤمن؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. فشرکه أفقده طمأنينته.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٢. العقوبة العاجلة في الدنيا.

فالمشرك قد تعجل له العقوبة في الدنيا؛ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِسَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

٣. الاضطراب والتشتت.

فالمشرك يضطرب بين المعبودات وتشتت به الأهواء بينما الموحد يعرف من يعبد، والطريق إليه طريق واحد.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. القضاء على عزة النفس.

فالمشرك يذل لجميع طواغيت الأرض كلها؛ لأنه يعتقد أنه لا معتصم له إلا هم، فيذل ويخضع لمن لا يسمع ولا يرى، ولا يعقل، فيعبد غير الله، ويذل له، وهذا غاية الإهانة، أما العزة الحقيقية هي التي تستمد من الإيمان بالله الواحد.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

٥. الشرك أعظم الظلم والافتراء.

فمن أشرك فقد ظلم نفسه. قال تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ لِقَمْنُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

بل وافترى إثماً عظيماً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

٦. الانحراف عن غاية الخلق.

فقد خلق الله الإنس والجن للعبادة. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

١٢. يوجب النار لصاحبه ويحرم عليه الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

١٣. خلود صاحبه في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦] (٢).

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإلحاد، الأوثان، التوحيد، الرياء، الضلال

لَيَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] (١).

ثانيًا: الآثار المترتبة على الشرك في الآخرة:

٧. خسارة الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

٨. خسارة أهله مع نفسه.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِي قُلْ إِنَّا لَنَنصِرَنَّ الَّذِينَ يَخِشُونَ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

٩. براءة الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِن اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٣].

١٠. الشرك الأكبر لا يغفره الله إذا مات صاحبه قبل التوبة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرَ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

١١. محبط لجميع الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال أيضًا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٧٢٤.

(١) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله الجربوع ١/ ١٢.